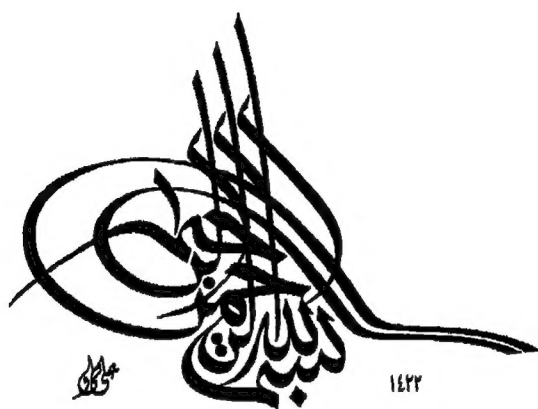


إعلاء كلمة الله أو الجهاد

تأليف
محمد فتح الله گولن

ترجمة
احسان قاسم الصالحى

إعلاء كلمة الله
أو
الجهاد



ترجمة كتاب
İla-yı Kelimetullah veya
Cihad

عن التريكة

دار الذيل للطباعة والنشر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ — ٢٠٠٢ م

الترقيم الدولي: ٩٧٥-٣١٥-٣١٣-٤ I.S.B.N:

الهاتف: (٩٠٢١٦٤٧٤٢١٨٧+) فاكس: (١٦٤٧٤٢١٩٠)

استانبول / تركيا

تقديم

إن الإسلام نظام إلهي شامل لجميع مرافق الحياة بمناهج متنوعة تخصها يحتضن الإنسانية كافة بل الدنيا والعقبى. وأهم مراميه رفع الإنسان إلى ذروة الإنسانية وجعله إنساناً كاملاً في أحسن تقويم. فإذا ما تصورنا مجتمعاً أفراده كاملون فإن الأمة الناشئة من مثل هؤلاء الأفراد سيبلغون مراتب من الكمال لا يجاريهم ملائكة السماء وينعمون بحياة النعيم ولما غادروا الدنيا بعد. ويمكن مشاهدة شرائع سعيدة محظوظة من المجتمعات بدءاً من خير القرون إلى يومنا هذا كنماذج من هذا المجتمع .

ولكن لو أخذنا واقع حاضرننا أساساً للبحث نواجه الحقيقة الآتية وهي أن الذين يظهرون كممثلين للإسلام وناشرين له لا يفهمونه حق الفهم ولا يبلغونه حق التبليغ ولا يعيشونه في حياتهم في ضوء ما سبق بيانه أعلاه. فالنتيجة الطبيعية لهذا أن الإسلام على الرغم من انه الدين الذي ارتضاه رب العالمين لا ينظر إليه غيرهم نظراً استحسان كما ينبغي.

وقد أفاضت الدراسات والبحوث حول الإسلام في تحصيل معانيه وأحكامه ومناهجه المتنوعة منذ العصور الأولى وإلى الآن بل حتى بمناقشته ومحاكمته، سواء في مستوى العلماء أو العوام. ومنها: "الجهاد في الإسلام".

فالجهد في أحد معانيه هو بذل الجهد والسعي. والمسلمون مكلفون بالجهد بهذا المعنى رجالا ونساء وشباباً. وقد عد هذا الجهد الذي يتغير شكله بمقتضى الشرائط التي تتطلبها الظروف، فرضاً في موضع وواجباً في آخر ومباحاً في غيره.

ومن جهة أخرى فللجهاد جهتان كما ورد في الحديث النبوي. إحداها الجهاد الذي يزاوله الإنسان مع نفسه والذي أطلق عليه "الجهاد الأكبر". والأخرى جهاد الأعداء والذي أطلق عليه "الجهاد الأصغر" وهذا النوع من الجهاد موضع نقاش في مستوى الفكر مع أعدائنا منذ القدم. أي كيف يجوز هذا النظام الذي يتعهد برفع الإنسان إلى أوج الكمال أن يقتل من لا يؤمن به، ويأسر النساء، ويهلك الحرث والنسل؟ وما شابه من الانتقادات..

والحال أنهم لو أمعنوا النظر وأنصفوا ومحصوا أحداث التاريخ لرأوا كم هي ظالمة هذه الانتقادات ولعلموا حقاً أنه النظام الذي يأخذ بيد الإنسان إلى كمال الإنسانية بأقصر طريق وأنفذه.

أنه حقيقة أن الإسلام منذ ظهوره وإلى الآن في صراع مع أعدائه، وحتى بالكفاح المسلح إذا اقتضى الأمر، فثم مقتول وثم قاتل. ذلك لأنه كان في فترة انتشاره في شبه محاصرة من جميع الجهات. فمن الطبيعي جداً أن يحارب ليفك عن نفسه الحصار، فاضطر إلى الحرب والقتال من أجل أن يجد فرصة التعبير عن نفسه.

كان الإسلام في خير القرون محاصراً من قبل اليهود والنصارى والمشركين كما كان مهدداً أيضاً من قبل مشركي العرب والبيزنطة والساسانيين.

وكان التعصب الديني كما هو في الوقت الحاضر، وعدم ظهور النبي من بين اليهود والنصارى، وبدوره الخشية من ضياع الامتيازات المادية، وما شابهها من الأسباب.. أصبحت سبباً لمقاومة الإسلام.

ومن جهة أخرى لم يكن موقف المجتمع الذي نشأ فيه الرسول ﷺ موقفاً يُغبط عليه قطعاً. فالتعصب القبلي والتعصب الأعمى لمعتقداتهم ولو كان باطلاً، والنظرة المشروطة مسبقاً والمتباينة.. والمستوى الهابط للحياة الاجتماعية.. وتحريض اليهود.. فضلاً عن صعاب لدى تنفيذ الأوامر الدينية.. والأعراب البدو الذين ظلوا معرضين عن الإسلام وخطراً كامناً على الإسلام في كل وقت... كل ذلك يمثل قسماً فقط من طوق العداء مع الإسلام. وأغلب غزوات الرسول ﷺ كانت مع هؤلاء المشركين عبدة الأصنام.

أما البيزنطيون والساسانيون فإن مقاومتهم الإسلام سارت مع تمكين الإسلام لنفسه في الأرض وتزايد المنتسبين إليه يوماً بعد يوم والتسارع في انتشاره. إذ من الطبيعي أن تعادي الإسلام عقليةً تتناول كل شيء بنظرة دنيوية محضة، وتتخذ المنافع المادية أساساً للحياة الدنيوية، لأن الإسلام يقلب دنيائها رأساً على عقب في حاضرها ومستقبلها.

المسلمون سواء في خير القرون أو في السنين التي تلتها لم يظلموا أحداً قط في جهادهم مع أعدائهم. فلم يعتدوا على أحد.. ولم يهلكوا الحرث والنسل..

ولم يحرقوا ويدمروا القرى والمدن.. ولم يقتلوا أحدا غير المحاربين . وأبرز مثال على هذا انه لم يتجاوز عدد القتلى من الطرفين أربعمئة شخصا طوال ثلاث وعشرين سنة في حياة الرسول ﷺ المليئة بالجهاد كما يذكره الأستاذ محمد حميد الله في كتابه "غزوات الرسول ﷺ". ويمكن أن نورد نماذج كثيرة حتى من العصور التركية التي دامت تسعة قرون فضلا عن خير القرون.

اجل، إن الإسلام قد أذن بالكفاح المسلح، ولكن اشترط لذلك عددا من الشروط منها:

أ- الدفاع عن المسلمين، دينهم و حياتهم وأموالهم ونسلهم.

ب- صيانة حرية الفكر

ج- الالتزام بالعهود والمواثيق

د- ألا يُظلم المسلمون ولا الدين في ذمتهم.

زد على هذا فان القرآن الكريم يصرح حتى في أخرج الظروف ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ (البقرة: ٢٠٨) ويأذن بالقتال ضمن شروط معينة ليكون وسيلة للسلام العالمي.

ولكن مع الأسف أننا لم نفهم هذه الحقائق على نصاعتها. فالحقائق التي ذكرناها نظريا هي أحداث عشناها منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وغدت في ذمة التاريخ. ثم لم نفهمها على حقيقتها من لسان مؤرخ قدير وبأسلوب علمي حاذق، ولكن هيهات . ولأجل توضيح المسائل التي ذكرناها والتي لم

نذكرها تترتب أعمال عظيمة على كاهل مفكري المسلمين. والكتاب الذي بين أيديكم "إعلاء كلمة الله أو الجهاد" نأمل أن يملأ فراغا في هذا الموضوع.

"إعلاء كلمة الله أو الجهاد" موضوع واسع يمكن البحث فيه من جوانب كثيرة كما ذكره المؤلف في فصل "المدخل". فلو حاولنا تناول جميع جوانبه بالبحث والتدقيق فلا نقدر على ذلك حتى بمجلدات كثيرة، على الرغم من توفر الكثير من الكتب المؤلفة أو المترجمة في هذا الموضوع. ولهذا فكتاب "إعلاء كلمة الله أو الجهاد" قد تناول الموضوع من جوانب معينة. وقد بين أستاذنا المحترم في "المدخل" هذا الأمر:

أن الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، وأفضلنا في بيان أن الأسباب الموجبة للحرب هي الدفاع، والحد من الظلم، وفتح باب حرية الإرشاد والتبليغ".

وهذا الكتاب يخاطب المسلمين المأمورين بالجهاد، فنجد الفصول الآتية: وظائف الجهاد، ما يكسبه الجهاد، معوقات الجهاد، وعشاق الجهاد الذين هم نماذج قدوة لجيلنا الحاضر تؤيد ما نقول. واعتقد أن القارئ الكريم هو الآخر سيجمل القناعة نفسها.

"إعلاء كلمة الله أو الجهاد" ستة فصول .

ففي الفصل الأول: يتناول مفهوم الجهاد بالتحليل في ضوء الكتاب والسنة. ويضع مفهوم "الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر" بعد البحث المستفيض فيهما، كلاً في موضعه اللائق به. ولا جرم فالحاجة ماسة إلى هذا الأمر. لأن

هذين المفهومين يفهمان أحيانا فهماً مختلفاً جداً. ولدى التطبيق يؤدي إلى مرّة أقدام. فمثلاً: القول بأن الجهاد هو الجهاد الأكبر لا غير. هؤلاء يفهمون الجهاد انه مجاهدة مع النفس الإنسانية، فتركوا جانباً الدعوة في العالم الخارجي وانسحبوا إلى زوايتهم منشغلين بذكر الله وحده. في حين غيرهم تبينوا الجهاد الأصغر وحده. فلم يروا الجهاد غير النضال مع الأعداء حتى بلغ بهم الأمر إلى إهمال العبادات المفروضة.

ولهذا لا يعدّ إسرافاً في الكلام - إن شاء الله - مهما قيل حول مفهومي الجهادين الأصغر والأكبر، لأجل استيعابهما جيداً وتنفيذهما في الحياة الحاضرة وفق موازين خير القرون. وربما أعطي لهذا الموضوع مساحة أوسع في هذا الكتاب.

الفصل الثاني من الكتاب هو "وظائف الجهاد". فيبحث بحثاً مستفيضاً عن الجهات المختلفة للجهاد من الجانب الدنيوي. مثلاً يبين أهمية الجهاد في "الجهاد منبع الحياة" ويقول:

"نحن مذ تركنا الجهاد نمت فينا الفرق والتخريب، وما نشاهده في الوقت الحاضر من التكتلات والتخريبات والفرق ليست إلاّ ثماراً من حنظل وزقوم نمت من تلك البذور الجهنمية التي نثرت في تلك الفترة. ولا خلاص من هذه الحالة المميّنة إلاّ بالجهاد. فالجهاد للمؤمن أسمى غاية وأعلى مثل يمكنه أن يضحى بنفسه من أجله..."

في الفصل الثالث "علاقة الجهاد - المؤمن - الكون" يبين أن أحد أسباب تكليف المؤمن بالجهاد هو الحاكمية على الأرض المؤسسة على الحق والحرية والعدالة. وتأسيس هذه الحاكمية على الأرض مسؤولية تخص المؤمنين. أو بتعبير آخر أن هذه الحاكمية المدخرة في مخطط القدر الإلهي لا تتحقق إلا على أيدي المؤمنين. ولهذا فإن كل مؤمن يعتقد أن هذا التكليف واجب ووظيفة عليه، أي يجب إعمال الفكر فيها والعمل على تنفيذها في الحياة الواقعية. ففي هذا الفصل تركيز على هذا المفهوم وربطه أيضا بعصر النبي ﷺ بإيراد مثالين منه وهما أنس بن النضر و البراء بن مالك رضي الله عنهما.

وفي فصل "ما يكسبه الجهاد" يذكر بحسب مكاسبات الجهاد المهالك والمخاطر الناجمة من عدم الإيفاء بهذه الوظيفة. وفيه كذلك - كما هو في الفصول الأخرى - إرشادات للمستشعرين بعظمة الدعوة إلى الله. ولاشك أن لهذه الإرشادات أهميتها القصوى ولا سيما إذا أخذت بنظر الاعتبار الفترة الزمنية التي قبلت فيها هذه الأقوال وطرحت هذه المباحث. تلك الفترة التي ضرب الإرهاب أطنابه في البلاد قبل سنة ١٩٨٠.

نعم في الوقت الذي كان الإرهاب يصول ويجول في البلاد، والبور الداخلية والخارجية تؤجج نار الفتنة، وعشرات من الشباب يقتلون يوميا، كان من العبث التحدث عن الأمان، أمان النفس والمال، وقد تعطلت التجارة حتى عجز التجار عن الذهاب إلى محالهم باطمئنان، واضطروا إلى غلقها خوفاً من الأخطار.. إن سعى أستاذنا لإبلاغ هذه الإرشادات القيمة أو بث أنفاس

الآمال المشرقة في هذه الفترة بالذات من منصة الوعظ في جامع "بورنوا" (بازمير) ما هو إلا تعبير عن النية الخالصة لإقرار الأمن والنظام والسكينة في هذه البلاد.

"إن أي نوع من أنواع الإرهاب والفوضى حالياً أجنبي المنشأ بلا شك، فالأجانب يريدون أن يحولوا هذا الوطن الشبيه بالجنة إلى جحيم لا يطاق. فلا أسهل من إرغام دولة خارت قواها نتيجة الإرهاب والفوضى. وهذا ما يصبو إليه الأجانب. فهم يريدون أن تتحول هذه البلاد إلى مستعمرة يستغلونها. والإرهابيون والفوضيون جميعهم ما هم إلا عملاء أولئك المستعمرين. ولكن لن يصلوا إلى مبتغاهم - بإذن الله - وسيمحق الله مكرهم. وهنا أمر مهم وهو أن الانشغال بالإرهابيين والفوضويين سيؤخرنا عن بلوغ ما نصبو إليه من هدف. ليس هذا ما يريده أعداؤنا بالدرجة الثانية؟ إذ هم يخشون أن يصلب عود المسلمين يوماً من الأيام فيصبح الإرهابيون كالحمر المستنفرة تفر من قسورة.

وهنا أمر لا بد ألا يُنسى أبداً وهو: أن المسلم إذا اقتضى الأمر يكون مع قوى الجيش والأمن للدولة تجاه أي نوع من أنواع الاعتداءات الخارجية أو الداخلية. فهذا واجب عليه. ولا يمكن أن يتصور تركه لهذا الواجب. ويكفي أن تدعوه الدولة وتكلفه بوظيفة كهذه. ولاشك أنه سيؤدي هذه الوظيفة المتممة لعمل الدولة، وبخلاف هذا فإن أية حركة فردية تؤدي حتماً إلى تهينة إرهاب آخر. فعلى المؤمنين أن يكونوا على حيطة وحذر من هذا الأمر. إذ لا يملك الإرهاب والفوضى أي جانب شرعي، ولا بد أن تُجثت جذورهما."

وكذا مما يلفت النظر ما بسطه أستاذنا من توضيح لحديث شريف قاله الرسول الكريم ﷺ ورواه أبو داود في سننه ينطوي على دروس عظيمة مفيدة لنا في الحاضر على الرغم من مرور أربعة عشر قرناً عليه:

(إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ^١ وَكُرِّتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ)^٢....

الفصل الخامس للكتاب: "معوقات الجهاد" قد خصص لبعض نواحي الضعف فيما كما هو واضح من العنوان. فهنا يلفت النظر إلى بعض المسائل الموجودة أو من المحتمل وجودها في كل إنسان متخذاً فطرة الإنسان أساساً. فيذكر بعض مواضع الزلات التي تخص الفطرة الإنسانية، تلك الزلات التي من المحقق أو من المحتمل وقوعها. فمثلاً: حب الراحة والدعة. ولا مراء فإن حب الراحة والدعة والانهماك في الحياة الدنيا فيروس خطر يقتل روح الجهاد.

وفي الحقيقة يمكن الإنسان أن يوجه هذه المشاعر في سبيل الدعوة المقدسة التي آمن بها وفي سبيل مرضاة الرب. وفي هذا يكون الظفر للدين أيضاً. فيتناول الفصل هذين العائقين المهمين من زوايا نظر متنوعة سارداً أمثلة ونماذج من خير القرون لسبل تجاوزهما، منيراً آمالنا وشاداً لعزائمتنا وإرادتنا.

أما الفصل الأخير "من عشاق الجهاد" فهو عرض لنماذج عملاقة ذاقوا لذة الجهاد وارتشفوا من رحيقه في كل لحظة من لحظات حياتهم، أولئك الصحابة الكرام، رموز فخرنا واعتزازنا وكرامتنا. وفي الحقيقة انه يمكن أن

١ بترك الصناعة

٢ أبو داود، البيوع ٥٦. المسند ٤٢/٢.

يذكر الصحابة كلهم في هذا الفصل إذ إن أولئك العظام قد أمضوا حياتهم كلها في مرضاة ربهم، إلا أن ذلك غير ممكن فعلا في مثل هذا الكتاب كما لا يخفى. ولهذا انتقي عدد من الصحابة الكرام وموقفهم من الجهاد بعد ذكر شيء من جهاد الرسول العظيم ﷺ.

إن كتاب "إعلاء كلمة الله أو الجهاد" كأمثاله من الكتب: "النور الخالد" و"القدر في ضوء الكتاب والسنة" لأستاذنا فتح الله كولن هو جمع لمواعظه التي ألقاها على منصة الوعظ قبل سنة ١٩٨٠. فهذا الكتاب هو جزء من سلسلة المواعظ التي ألقاها أستاذنا المحترم في جامع "بورنوا" التابعة لمدينة إزمير حينما كان واعظا هناك. فهذا الكتاب ليس إلا ما يخص الجهاد من تلك المواعظ. سُجلت هذه المواعظ على أجهزة التسجيل أولا ثم حوت إلى لغة الكتابة. وبعد إجراء التصحيح عليها من قبل الأستاذ نفسه نشرت في الصفحة الأكاديمية لجريدة "الزمان"، متسلسلة. وعندما تحول الأمر إلى كتاب وضعت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بنصوصها العربية بعد تحقيق أصولها ومصادرها.

نترككم مع "إعلاء كلمة الله أو الجهاد" وفي الوقت نفسه نقدم جزيل شكرنا وامتناننا لأستاذنا الفاضل داعين المولى القدير أن يمنحه دوام الصحة والعافية ليتحفظنا بأمثال هذه المؤلفات البديعة. وكذا نشكر كل من ساعد وساهم في إخراج الكتاب على صورته القشبية هذه.

أحمد قوروجان

١٩٩٦/٣/٢١ - استانبول

المدخل

الجهاد بالمفهوم الذي يدركه الجميع هو النضال والكفاح في سبيل إعلاء كلمة الله. وقد وُجد هذا النضال منذ أن وُجد الإنسان نفسه على الأرض وسيمضي إلى أن يرث الله الأرضَ ومنَ عليها، وما المخاصمة التي حدثت بين ابني آدم عليه السلام إلا أول مثال له.

الجهاد لغةً كلمة واسعة المعنى، تتسع باتساع الأحوال وعوارض الظروف لكل عصر، إذ قد يتحقق أحياناً بالتضحية بالغالي والنفيس من الأموال، ويبلغ أحياناً أخرى درجة الفداء بالنفس في هذه السبيل ومن هذه الزاوية فإن تعريفه بأنه "قتال الأعداء" ما هو إلا تحديد وتقليص لمعناه الواسع الشامل.

ولقد كسب الجهاد في عصرنا الحاضر خواصاً متميزة، حيث تحولت دنيانا إلى ما يشبه القرية العالمية، وتوسعت فيها وسائل الاتصال والنقل توسعاً هائلاً قد لا يتصوره خيالنا، وقد أثر توازن القوى العالمية - إلى حد ما - بمعناه ومفهومه.. لذا فلا شك أن شكل الجهاد سيكون أيضاً مختلفاً في هذا العصر.. ولا يعني هذا تغير معنى الجهاد ولا مضمونه.

وقد أضاف بديع الزمان سعيد النورسي بُعداً آخر جديداً لمصطلح الجهاد وذلك بقوله: "الظهور على المدنيين يكون بالإقناع". فإذا ما تصورنا سيطرة تيار الفلسفة الوضعية والمذهب العقلي حتى على العالم الإسلامي، فضلاً عن

العالم الغربي، فإن تبليغ الإسلام بلا شك إلى هؤلاء الناس سوف لا يكون ضمن ذلك المعنى الضيق للجهاد الذي ذكرناه آنفاً، أي "القتال"؛ إذ إن جهاد أولئك إنما يتحقق بإجراء مقارنة بين أسس النظم التي ارتضوها - الواحد تلو الآخر - مع أسس الإسلام. نعم إن جهادهم لا يتحقق إلاّ بهذا الأسلوب، أسلوب الإقناع.

والجهاد في الوقت نفسه - حتى الجهاد المادي - ليس فرضاً على الرجال دون النساء بل هو مسؤولية تقع على كل مؤمن مسلم حاز على شروط التكليف سواء أكان رجلاً أم امرأة. فإذا ألقينا نظرة على الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتعلقة بالجهاد نشاهد هذه الحقيقة بوضوح، علماً أن نماذجها التطبيقية تتلأخيراً القرون وما أعقبته من قرون. وإذا ما أردنا مثلاً حياً لهذه الحقيقة من تاريخنا القريب، نجد المعارك التي دارت في أرجاء الأناضول وفي حرب جنناق قلعة.. شاهدات على اشتراك الرجال والنساء معاً في الجهاد، بل حتى الشيوخ والأطفال حيث أستنفر الجميع خفاً وثقلاً في سبيل الله.

ولقد قُسم الجهاد إلى قسمين في أحاديث الرسول الكريم ﷺ، وهما: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر. وفي الحقيقة إن هذا التقسيم عبارة عن وجهين لحقيقة واحدة؛ إذ المقصود من الجهاد الأكبر هو عملية إعلاء الإنسان ورفعته إلى مستوى الإنسانية الحقّة من حيث حياته القلبية والروحية. أي محاولة الإنسان طوعاً أو كرهاً جهاد نفسه على مدى حياته كلها، وفي كل جزء من

جزئياتها، حتى في الأكل والشرب وفي الحل والترحال... ومقاومتها عن كل ما لا يرضى عنه الله جل وعلا.

أما الجهاد الأصغر فهو جهاد الإنسان بماله ونفسه في سبيل الله حفاظاً على مقدساته، وإذا اقتضى الأمر، قتال الأعداء وجهاً بوجه.

فحسب هذا المفهوم الشامل للجهاد، فإن الجهاد الأكبر هو الطريق الذي يسلكه الإنسان طوال حياته، أينما كان وكيفما كان، وفي أي ظرف كان، بينما الجهاد الأصغر هو مزاوله الإنسان له إذا اقتضت الظروف، ويكون في أوقات معينة وبين حين وآخر.

وفي الحقيقة إن الشرط الأساس لتحقيق الجهاد الأصغر له علاقة قوية أيضاً بما يحققه المجاهدون من الجهاد الأكبر في أنفسهم وما التزموا به برغبة وإصرار. نعم إنه لا يمكن أن يذوق النصر إنسان لا يعيش في نفسه تلك الحقائق التي ينافع ويذب عنها في كل ميدان يخوضه. لذا ينبغي لأبطال الجهاد أن يحققوا الجهاد في أنفسهم أولاً ويظلوا معها في جهاد مستديم حتى يكونوا أخرويين يسيحون في منازل الآخرة وهم ما زالوا في هذه الدنيا. ومن بعد ذلك عليهم أن يسعوا لإسعاف القلوب الظمأى إلى الحق والحقيقة.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على صفحات التاريخ نجد أن الذين أوفوا التبليغ والإرشاد حق الوفاء، سلكوا جميعاً هذا المسلك. فابتداءً من الأنبياء عليهم السلام إلى الأصفياء والأولياء، أو بتعبير أوضح إبتداءً من سيدنا الرسول الكريم ﷺ إلى الإمام الرباني والشيخ الكيلاني ومولانا خالد وديع الزمان

سعيد النورسي سلك جميعهم هذا المسلك. لذا أعطى الله ﷻ لكلامهم قوة وتأثيراً، بناء على إخلاصهم لله وصدقهم معه، حتى جعلهم يحيون - منذ عصورهم إلى الآن - بآثارهم الطيبة وذكرياتهم الجميلة، وشرح الله صدور المؤمنين لهم. وكأنه خلّدهم بسجل حسناتهم.

وللجهاد جهة أخرى تضم المجتمع بأكمله وتحتضنه، وهو جانب مهم جداً، إذ الإنسان جزء من المجتمع الذي يعيش فيه والمجتمع بدوره يتألف من الأفراد. فالمجتمع الذي يهدف كل فرد فيه إلى جهاد نفسه أولاً لدى أدائه فريضة الجهاد، هو مجتمع متماسك مترابط، تنسد أبوابه أمام عوارض الزمن ونوائب الدهور، حيث أتم كل فرد فيه مهمته وأعدّ عدته المادية والمعنوية، فلا يمكن أن يصدّهم شيء عمّا يسرون إليه.

ولا يخلو مجتمع أو أمة - في كل عصر من العصور - ممن هم بحاجة ماسة إلى الإرشاد والتبليغ. لذا فاللؤمنون الذين يعيشون مع هؤلاء الذين يجوبون في وديان الضلالة ويبحثون عن طريق للخلاص ويضيّعون حياتهم في سبيل العدم، مضطرون إلى أداء فريضة الجهاد مع هؤلاء الذين يشاركونهم العيش في سفينة الحياة الواحدة. فهذا فرض في أعناقهم من حيث كونهم بشراً. ومن جهة أخرى فهو فرض اللقاء الله عليهم وكتبه لهم. فكل إنسان مكلف بأداء هذه الفريضة ضمن إطار موضعه وموقعه وأحواله، وحسب إمكانياته وطاقته. وبخلافه يكون حسابه عسيراً يوم الحشر الأكبر.

إن أمماً كثيرة جداً لا يتحملون - على أية حال - دور الإسلام المسيطر في

العالم، والذي تحقق عبر التاريخ في عهد الأمويين والعباسيين وأخيراً العثمانيين، فهؤلاء يغمضون أعينهم عن الحقيقة، لذا من العيث توقع صدور فكر آخر منهم غير هذا النمط. وكما هو واضح أيضاً - في أيامنا الحاضرة - أن أعداء الإسلام ما زال عداؤهم على شدته وعنفة رغم مرور العصور، فتراهم يسلكون مسلكاً ذي وجهين محملين كل السلبات على الإسلام. وينشر الغرب ما لا يعد ولا يحصى من الكتب ويسخر الأقلام لأجل بث هذا الفكر الغربي إلى العالم أجمع وحمل الناس على التصديق به، متخذين في اعتبارهم أن القضية هي قضية الإسلام والنصرانية وعلى مدى العصور، ولم يغيروا سياستهم هذه، فالمسلمون في نظرهم وحوش ضارية، وسفاحون قتلة وجناة سفلة... وكم هو مؤلم أن في عالمنا نحن من المثقفين من يعتقد بهذه الفرية على الرغم من قتلهم.

هذا وقد تناولنا هذا المفهوم الشامل للجهاد في كتابنا "مفخرة الإنسانية محمد ﷺ" وبشكل مفصل مع سرد الأمثلة الكثيرة من عصر النبوة وإيراد الأجوبة على ما يثته الغرب من اعتراضات على الجهاد. لذا لا نرى داعياً للتطرق إلى ذلك الموضوع مرة أخرى. نعم، لقد وضحنا في ذلك الكتاب: أن الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، وأقضنا في بيان أن الأسباب الموجبة للحرب هي الدفاع، والحد من الظلم، وفتح باب حرية الإرشاد والتبليغ. فمن شاء فليراجع ذلك الكتاب.

لم يبق مفهوم الجهاد في الإسلام منذ فجر التاريخ حتى يومنا الحاضر على

حالة نظرية بحتة، بل ظهر في كل عصر من العصور من يحوِّله إلى عمل في الحياة، وعلى أفضل وجه. ومن الجدير بالذكر أن الذين تم على أيديهم النصر - نصراً تاماً أو غير تام - أصبحوا في أحيان أخرى مغلوبين على أمرهم. ولكن يتميز الصحابة الكرام - من بين ممثلي كل العصور - بأنهم دائماً في الذروة لا يرقى أحد إلى مقامهم الرفيع. فالمؤمنون الذين اتخذوا الصحابة الكرام قدوتهم - كما أمر به الرسول ﷺ - قد ساروا في الدرب الذي ساروا فيه. وسيحظون بالحشر معهم يوم القيامة بإذن الله.

ونحن في هذا الكتاب، حاولنا - كما سبتين - سرد أجمل الأمثلة للجوانب العملية لمفهوم الجهاد في الإسلام.

أما حكم الجهاد - وفق القواعد الإسلامية - فهو يختلف حسب الظروف المحيطة. فإن كان اسم الله منسياً في موضع ما، وأوامره ونواهيه يضرب بها عرض الحائط، فالجهاد في ذلك الموضع فرض عين على كل مؤمن، بل هو أفضل الفرائض وأوجبها، ولا سيما إن كان ذلك المجتمع أسير ذلك المفهوم بمؤسساته ومنظماته. ولا يكون الجهاد فرض كفاية إلا إذا أدت مؤسسات ومنظمات - في جبهة الإيمان - وظيفتها وبصورة منتظمة منسقة.

والآن يمكننا أن نمضي في فصول الكتاب بدءاً بمعنى الجهاد لغةً واصطلاحاً، ثم تعريفه، ومضمونه بجمل قصيرة موجزة.

حَوْلَ مَفْهُومِ الْجِهَادِ

الفصل الأول

١. ما الجهاد ؟

الجهاد: كلمة مشتقة من جذر: ج ه د، وهي تعني بذل الوسع. والكلمة تحمل معنى آخر وهو بذل الإنسان كل ما في وسعه وطاقته وتحمله المشاق في سبيل الوصول إلى هدف معلوم. وهذا التعريف أقرب إلى معنى الجهاد في معناه الشرعي.

إن مفهوم الجهاد قد كسب ميزة أخرى بظهور الإسلام، إذ صار علماً على تحقيق إيصال الإنسان إلى الله ﷻ بإزالة العوائق بينه وبين الله تعالى. وحيثما يُذكر الجهاد في الوقت الحاضر يرد هذا المعنى على البال.

إن الجهاد في سبيل الله يجري في جبهتين اثنتين: الأولى، موجهة إلى الداخل. والأخرى موجهة إلى الخارج. ويمكننا أن نعرف كلاً من الجهادين بالآتي: إن بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية إيصال الإنسان إلى ذاته وإلى ربه. أما الجهاد الآخر الموجه إلى الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلى ربهم. ويطلق على الأول "الجهاد الأكبر" وعلى الثاني "الجهاد الأصغر". حيث إن الإنسان بالأول يبلغ معرفة نفسه بعد اجتيازه العقبات بينه وبين نفسه حتى يبلغ معرفة الله ومحبة الله والذوق الروحاني. أما بالثاني فتتحقق إزالة الموانع بين الإنسان والإيمان بالله سواء بالنضال أو القتال، لإيصاله إلى الله تعالى ومن ثم التعرف عليه والعروج في معرفته.

والجهاد من زاوية أخرى هو غاية خلق الإنسان، فلا مهمة على الأرض أفضل منه. إذ لو كان الأمر خلاف هذا، لما كان الله سبحانه يرسل أنبياءه بتلك الوظيفة. فجميع الأنبياء والأصفياء منذ آدم عليهم السلام قد بلغوا - بصورة عامة - مرتبة الاصطفاء و الاختيار إما تحت ظلال السيوف أو بمحاسبة النفس.

ومن هنا فالبون شاسع بين القاعدين عن الجهاد بغير عذر وبين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، لا يسدّه أي عمل كان غير الجهاد. والآية الكريمة الآتية توضح ذلك:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥).

والرسول الكريم ﷺ يبين أهمية الجهاد بالآتي:

(لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ) ٣

والله أعلم كم كان الرسول ﷺ يكرر: ثم أُقتل ثم أحيا، إن لم يخش الإطالة في الكلام، إذ المقصود - من هذا التعبير - هو الاستشهاد في سبيل الله بغير حصر. والذي يدعو إلى التأمل، أن هذه الرغبة والأمنية تصدر من سيد المرسلين وإمام الأنبياء ﷺ الذي يقول أيضاً:

٣ البخاري، الإيمان، ٢٦. "مسلم، الإمامة، ١٠٣. النسائي، الجهاد، ٣٠. ابن ماجه، الجهاد، ١

(رَبَّاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَمَوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ
مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَالرُّوحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ
الْعَدُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا).^٤

٤ البخاري، الجهاد، ٧٣. مسند أحمد بن حنبل ٥ / ٣٣٩

٢. الجهاد أمر إلهي

إذا أردنا أن نوجز الجهاد كأمر إلهي عبر سيره التاريخي متمثلاً بسيرة الصحابة الكرام الذين خوطبوا به لأول مرة نقول:

إن الأحداث تبين أن الظروف المحيطة بالمسلمين في مكة المكرمة بلغت حداً لا يطاق، حتى نفذت طاقة بعضهم فأمروا بالهجرة°. بمعنى أن جهاد هؤلاء - في هذا الظرف - هو الهجرة. وفي الحقيقة أنه بعد مدة - كما سنرى - ستكون الهجرة هي الجهاد بعينه. وسيؤمر كل من أراد البيعة بالهجرة كشرط أولي.

ولقد هاجر المسلمون جميعهم إلى المدينة بعد هجرتي الحبشة^٦. وبهذا أخذ الجهاد نمطاً آخر في العهد المدني، إذ أرسيت أسس الدولة الإسلامية.. فينبغي الجهاد إذن وفق الظروف ووقتها. ولا اختلاف في ماهية الجهاد وكيفيته، وإنما الأمر في كيفية تقويم الأمور حسب الأوضاع والظروف في حالها. والمهم الحفاظ على قابلية المناورة بمجديتها وجدتها، مما كان يتطلب السرعة أحياناً، والبطء والهدوء أخرى، بل التوقف أحياناً وغاية السرعة أخرى.. وكل ذلك يعدّ من جوانب الإستراتيجية للمسألة. ومن الطبيعي جداً اتخاذ أوضاع متباعدة وفق اختلاف أحداث الزمان.

٥ ابن كثير، البداية والنهاية ٢ / ٦٤

٦ ابن كثير ٢ / ١٦٧

قبل الإذن بالجهاد لم يحرك المسلمون ساكناً ولم يردّوا بالمثل قط على الاعتداءات والتجاوزات على حقوقهم، أي أنهم قاوموا مقاومة سلبية، بل حتى لم يفكروا بالمقابلة المادية، وكان الباغي دائماً جبهة الكفر، والمسلمون في وضع المظلومين والمهضومي الحقوق. واستمر الوضع على هذا المنوال مدة بعد الهجرة، وأخيراً أذن بالجنّاح الآخر للجهاد ونزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ يَغْيِرُ حَقٌّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهَادَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

فالذين مُنعوا من استعمال السيف يؤذن لهم الآن بالتسلّح. فاندفعوا بحماس إلى إنفاذ الأمر إذ كانوا يترقبون بنفاد صبر الموضع الملائم لاستعمال هذا الإذن.

وبعد مدة أصبح الجهاد ليس إذناً فحسب بل أمراً إلهياً. وأصبح المسلمون بعد ذلك مضطرين إلى الجهاد المادي بسيفهم، حتى أنهم عندما خرجوا إلى بدر كانوا يترفلون بالفرح والسرور وكأنهم نودوا من الجنة. فهان عليهم ذهاب أموالهم وأنفسهم. نعم كانوا جميعاً ينتظرون الموت بلهفة وشوق عارم، ولهذا لم يتخلف أحدٌ منهم دُعي إلى الجهاد قط، إلا المنافقين الذين ييثون روح الفساد في صفوف المجاهدين فكثيراً ما تركوا الجبهة، وفارقوا الجماعة، وتركوا الرسول الكريم ﷺ هناك، وتباطأوا عن الجهاد في وقته أحياناً. فهو لاءلم

يدركوا الصفاء في الداخل، ولم يغلبوا النفاق في عالم ضمائرهم ووجدانهم، حيث انهمكوا بمحوظاتهم الشخصية وانعزلوا عن رفقاتهم المجاهدين في خط النار في ساحة الوغى. حقاً انهم ذوو أرواح سافلة وأسراء النفس والهوى.

أما المؤمنون بالله ورسوله ﷺ إيماناً باشر قلوبهم وأرواحهم، فلم يترك أحد منهم قط موضعه، أي لم يتراجع أحد بُلغ بالجهاد عن مرضاة الله وأصبح من الواصلين إلى الله. فالذين قعدوا وتحلفوا هم الحائرون المترددون الذين لم يدركوا الحقيقة حق إدراكها ولم تباشر أرواحهم وضمائرهم.

نعم، إن المؤمن المجاهد بشر كأي بشر آخر، يمكن أن يكره الموت كما يذكرنا القرآن بهذا الشعور: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (البقرة: ٢١٦). ولكن على الرغم من أن هذا مغرور في فطرة الإنسان فإن الصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين انقادوا إلى أمر الرسول ﷺ دون قيد أو شرط وسلّموا أمرهم إليه بغير حرج في صدورهم. ولهذا تنزلت عليهم الألفاف الربانية تترى، لصفاء طاعتهم وقوة انقيادهم. وهكذا تعاقبت الانتصارات الواحدة تلو الأخرى. فازدادت قوة المسلمين يوماً بعد يوم، وكانت بشارات النصر تنتشر بسرعة في القبائل. فمثلاً يفرح المسلمون بها يحزن بها الكفار.

٣. أنواع الجهاد

آ. الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر

الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يؤدَّى في جبهة القتال فحسب، فهذا النمط من الفهم يقلِّص أفق الجهاد، حيث أن ميدان الجهاد واسع جداً يمتد من الشرق إلى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة أو سكوتاً وصمتاً أو تبسماً وطلاقة وجه أو امتعاضاً ونفورا أو تركاً لمجلس أو مشاركة فيه.. وباختصار هو القيام بأي عمل من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل... ومن هنا فإن كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع في أي ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع.. كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي.

بمعنى أن ما يُؤدَّى في ميدان العائلة والأقارب القريين والبعيدون والجار ذي الجنب والصاحب بالجنب.. كل ذلك هو من الجهاد الأصغر. فهي كدوائر متداخلة واسعة سعة الأرض كلها.

نعم، إن الجهاد الأصغر في معنى من معانيه جهاد مادي. أما الجهاد الأكبر الذي يشكل الجانب المعنوي من الجهاد فهو جهاد الإنسان لنفسه وعالمه الداخلي. فمتى ما أوفى حق هذين الجهادين معاً فقد تأسس التوازن المطلوب. وبخلافه، أي إذا ما نقص أحد هذين الجهادين اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد.

فالمؤمن هو الإنسان الذي يجد هدف حياته ضمن هذه الموازنة في أدائه الجهاد، ويدرك أنه متى ما ترك الجهاد فُقدت الحياة. نعم، المؤمن كالشجرة المثمرة تحتفظ بحيويتها طالما تثمر، وإذا انقطعت عن الإثمار يبست وفنت.

إذا شتمت أمتعوا النظر في وجوه جميع المتشائمين، تجدوهم قد تركوا الجهاد، فقطع المولى الكريم عنهم فيوضاته لأنهم لا يبلغون الحق والحقيقة إلى غيرهم. فأظلم عالمهم الداخلي وغدا قاسياً جاسياً. وانظروا إلى المجاهدين تجدوهم في نشوة وحبور دائمين وعالمهم الداخلي مملوء بالنور ومشاعرهم نابضة بالحياة والفرقة، لما يسعون إليه من تحويل الفرد الواحد إلى الألف، نعم إن كل جهاد يولّد لديهم جهاداً آخر، وكل خير يكون وسيلة لخير آخر، لذا فهم يحولون ويصلون في الخيرات. والآية الكريمة تفهم هذه الحقيقة في وجداننا.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)

ب. الطرق المؤدية إلى الله

الطرق المؤدية إلى الله مختلفة ومتنوعة وهي بعدد أنفاس المخلوقات. ولا ريب أنه ﷻ يهدي الذين يجاهدون في سبيله إلى إحدى هذه الطرق أو إلى عدد منها، فيضع سبل الخير كلها أمامهم ويحفظهم عن طرق الشر.

إن طريق الله سبحانه هو الصراط المستقيم، فمن وجده فقد وجد الصراط السوي الوسط. نعم، فكما أن الصراط المستقيم هو الوسط بين الإفراط والتفريط في القوة الغضبية والعقلية والشهوية، كذلك هو الوسط في الجهاد

والعبادة، حيث يأخذ المؤمن الوسط دائماً. أي أن الله سبحانه يهدي الإنسان إلى صراطه السوي الوسط.

إن الجهاد الموجّه إلى الخارج مهما بلغت فيه التضحية والفداء فانه بمجموعه يعدّ ضمن الجهاد الأصغر، وكونه جهاداً أصغر إنما هو بالنسبة للجهاد الأكبر. وإلاّ فليس فيه جهة صغيرة قط. بل العكس هو الصحيح لأنّ ما يُكسبه من نتيجة، هي عظيمة للغاية، وكيف لا تكون عظيمة وهي ترشح المجاهد للدخول إلى الجنة، وإذا ما استشهد فله الحياة الكاملة في البرزخ. ولاشك أن المقصود هو نيل رضى الله في ختام الجهادين. وكيف يكون صغيراً جهاد له هذه النتائج الجليلة؟

فالجهاد الأصغر إذن هو تنفيذ أوامر الدين عملياً وأداء ما كُلف به الإنسان. أما الجهاد الأكبر فهو إعلان الحرب على جميع العقائد والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية التي تعيقه عن الكمالات من حقد وحسد وأنانية وغرور وكبر وفخر وأمثاله من الأمور التي جبلت عليها النفس الأمارة بالسوء. فهذا الجهاد عسير وشاق ولهذا سمّي بالجهاد الأكبر.

إن دوران الحياة في فلك الأنانية خطر جسيم، والإنسان طالما هو في حومة الجهاد المادي لا يجد فرصة - في اغلب الأحيان - للإنصات إلى مطالب نفسه، فيكون قد تجاوز هذه الخطورة، ولكن ما إن يُترك الجهاد المادي حتى تشرّب النفس بعنفها وعندها يداهم الخطر حيث يعني هذا ضمور الحياة القلبية والروحية.

فالشخص المعرض لمثل هذا الموقف تحيط به الأفكار الفاسدة من جهاته الأربع وتعرض حياته المعنوية إلى الشلل. وبهذا من الصعوبة بمكان أن يحافظ الإنسان على نفسه من دون القيام بالجهاد المادي. لذلك فإن أصعب المصاعب هو ما أشار إليه الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات حيث قال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر".^٧

والحديث الشريف يعني: أننا آمنا وشرّفنا بالجهاد والاشتراك في الغزوات وربما غنمنا بعض الغنائم.. وبعد ذلك ربما يسري إلى نفوسنا حب الدعة والراحة والارتخاء بل ربما يراود بعضنا الشعور بشيء من الإعجاب، فيتسرب من نفوسنا الأمانة - بطرق شتى - إلى أرواحنا ويفسدها. بمعنى أن مخاطر مهلكة كثيرة تنتظرنا بعد الجهاد المادي. فالنضال الذي سنخوضه بعد ذلك هو أصعب وأكثر جدية، فلا بد إذن من الاحتفاظ بحالة الحذر الدائم والاستعداد المستديم.

فالمخاطب بهذا الحديث الشريف، فضلاً عن الصحابة الكرام، هم الذين يأتون من بعدهم، ونحن منهم بالذات. ولهذا ينبغي أن نظل حذرين جداً في استعمال هذا الميزان، فإن كان الإنسان يوجه حركاته في الجهاد إلى الخارج وحده بعيداً عن مراقبة النفس فهذا يعني أنه على شفا جرف من الخطر الجسيم.

٧ تاريخ بغداد، ١٣ / ٥٢٣ كشف الخفاء ١/٢٢٤ - ٤٢٥

ج . ما يخصه ﷺ

كان أناسي خير القرون، عصر النبوة، كالأسد في الرغى، ولكن ما أن يرخى الليل سدوله حتى تراههم كالرهبان المتبتلين يقيمون الليل كله في عبادة وذكر وتسبيح إلى الفجر، وكأنهم كانوا فارغين في النهار وليسوا أولئك المجاهدين الذين اقتحموا المهالك، بل زهاداً منقطعين للعبادة وحدها..

نعم هكذا شاهدوا الأمر من رائدهم ومرشدهم ونبيهم الكريم ﷺ. ولنعرض هنا بضعة نماذج:

كان رسولنا الكريم ﷺ أنموذجاً ومثالاً للشجاعة فيروي سيدنا علي عليه السلام وهو البطل الشجاع ويقول: (كنا إذا احمرّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أدنى إلى العدو)^٨. ومثلاً في غزوة حنين (طلق يركض بغلته قَيْلَ الكفار ويأخذ العباس بلغته يكفها أن لا تسرع وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)^٩

فهذا المثال الرائع ﷺ والأنموذج الكامل للشجاعة والإقدام والبطولة، كان في عباداته كذلك في منتهى العبودية حتى يُسمع في صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء^{١٠} ويدفع من حوله إلى رقة القلب كلما سكب الدموع^{١١} وكان

٨ مجمع الروايات ٨٧٤/٢ المسند ١ / ٨٦؛ المستدرک ١٥٥/٢

٩ البخاري، الجهاد، ٥٢. مسلم، الجهاد، ٧٨-٨٠. الترمذي، الجهاد، ١٥

١٠ مسند أحمد بن حنبل، ٢٥/٤. النسائي، سهو، ١٨ ابن ماجة، المقدمة، ٣

١١ مسلم، الجنائز، ١٢. أبو داود، الجنائز، ٧٧

يصوم أياماً حتى يقال انه لا يفطر^{١٢} بل كان يصوم حتى صوم الوصال.^{١٣}

وكان يقيم الليل كله أحياناً حتى تورمت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فأجابها الرسول الكريم ﷺ يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟^{١٤}

وفي أثناء وجوده في غار ثور من دون مبالاة بالحيات والهوام، وقد بلغ المشركون باب الغار، فجزع أبو بكر خشية أن يطلع عليهم أحد. فقال له رسول الله ﷺ في منتهى الاطمئنان والسكينة: (يَا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.. لا تحزن إن الله معنا).^{١٥}

فهذا الإنسان الذي لا يعرف الخوف قطعاً عندما يسمع القرآن يرق قلبه حتى تهمر الدموع منه وتكاد تنقطع أنفاسه. (فعن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: اقرأ عليّ. قلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم، إني أحب أن أسمع من غيري. فقرأت سورة النساء. حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدٌ﴾ (النساء: ٤١) قال: حسبك الآن. فإذا عيناه تذر فان).^{١٦}

انه إنسان القلب الحي والضمير اليقظ، وهو السابق الأول دوماً في الجهاد المادي و الجهاد المعنوي. فحينما يحث أمته على الاستغفار يكون هو في

١٢ مسند احمد بن حنبل، ٣/ ١٢٤

١٣ البخاري، التمني، ١٩. مسلم، الصيام، ٦٠

١٤ البخاري، التهجد، ٦. مسلم، المناقب، ٧٩-٨١. الترمذي، الصلاة، ١٨٧

١٥ مسلم، فضائل الصحابة، ١. الترمذي، تفسير سورة (٩) ١. مسند احمد بن حنبل ١/ ٤

١٦ البخاري، التفسير، (النساء) ٩ المسند، ٤٣٣/١. البيهقي، ١٠ / ٢٣١

المقدمة ويقول: (والله إني لأستغفر ربّي وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)^{١٧} ألا ما أعظم هذا الكلام في حثه على التأمل والتدبر.

إن الذي ظفر في الجهاد الأكبر يمكن أن يُنظر إلى أن جهاده الأصغر - على الأغلب - محقق الوقوع، بينما لم يُشاهد أحد خسر في الجهاد الأكبر وظفر في الجهاد الأصغر إلا نادراً جداً. فهو لاء لا يبلغون النتيجة وإن أمكنهم إيصال الخدمة والعمل إلى مرحلة معينة.

عن ابن عمر: (يخاطب أمنا عائشة) رضي الله عنهما: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ. فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مسح جلدته جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي (ألا ما لطفه ﷺ يستأذن زوجته ليتعبّد ربه). قالت: فقلت: والله إني لأحب قُربَكَ وإني أحب أن تعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء. ثم قام يصلي، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح. قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر. فقال: وبك يا بلال وما يمنعي أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠). ثم قال: وبل لمن قراها ولم يتفكر فيها).^{١٨}

١٧ البخاري، الدعوات، ٣. الترمذي، تفسير سورة (محمد) ١. ابن ماجة، الأدب، ٥٧. مسند احمد بن حنبل ٢/ ٢٨٢
١٨ ابن حبان، ٣٨٦/٢. تفسير القرطبي، ٤/ ٣١٠. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٤١.

وأحياناً كان الرسول ﷺ يقوم - دون أن يوقظ أهله - ويتوضأ ويقف لعبادة ربه. تقول أمنا عائشة أيضاً رضي الله عنها سمعته يدعو: (اللَّهُمَّ! أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ أَيُّ مَنْ قَهَرَكَ بِلُطْفِكَ وَمِنْ جَلَالِكَ بِجَمَالِكَ وَمِنْ جَبَرُوتِكَ بِرَحْمَانِيَّتِكَ وَرَحِيمِيَّتِكَ) لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ. أَنتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ^{١٩}. وهذا هو الرسول الكريم ﷺ وهذا هو جهاده الأكبر وهذه عظمته.

د . والدين اتبعوه

لقد سعى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين سعياً حثيثاً لإتباع الرسول الكريم ﷺ خطوة فخطوة، وبذلوا وسعهم ليعيشوا حياتهم كما كان الرسول ﷺ يعيشها، لأنهم كانوا مدركين جيداً أن رفقته في الدار الآخرة إنما تكون باتباعه في هذه الدار إتباعاً تاماً. حتى كان منهم من أمثال "ثوبان" الذي خطر بباله يوماً مفارقة الرسول ﷺ فانقطعت شهيته واستولى عليه الهم والغم. وفي إحدى الغزوات لم يصحب الرسول ﷺ. وعند عودته ﷺ كان الجميع يتتابعون إلى زيارته، وكان من هؤلاء ثوبان وقد نخل جسمه واصفر لونه حتى كأن لم يبق منه غير الجلد والعظم. فسأله الرسول ﷺ الرؤوف الرحيم: ما هذا يا ثوبان؟

قال ثوبان: لقد أهمني أمر فأوقعني فيما ترون، إذ قلت في نفسي: إنني لا أطيق فراق رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، فكيف أقوى على فراقه في عالم خالد،

١٩ مسلم، الصلاة، ٢٢٢. أبو داود، الصلاة، ١٤٧. الترمذي، الدعوات، ٧٥. النسائي، الطهارة، ١١٩

حيث يكون هو في مقام رفيع وفي جنته الخاصة به، بينما أنا واحد من عامة الناس فلا يمكن أن ادخل جنته حتى لو دخلت الجنة. بمعنى إنني سأفارقه إلى الأبد.. ففكرت في هذا يا رسول الله فوقعت في هذه الحالة. فأجابه الرسول ﷺ هذا الجواب الشافي الخالد: (المرء مع من أحب).^{٢٠}

إن محبة المرء تكون بالتشبه بالمحبوب، وجعل حياته أنموذجاً يقتدى به في حياته. والصحاب الكرام كانوا حقاً على هذا الشعور تماماً.

مثال آخر: "عن جابر قال خرجنا مع رسول الله ﷺ يعني في غزوة ذات الرقاع فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين فحلف أن لا انتهى حتى أهرق دماً في أصحاب محمد فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ منزلاً فقال من رجل يكلؤنا فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقال كونا بفم الشعب قال فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع، وقام الأنصاري يصلي وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيثة للقوم فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه حتى رماه بثلاثة أسهم ثم ركع وسجد ثم انتبه صاحبه فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم قال سبحان الله ألا انبهتني أول ما رمى قال كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها".^{٢١}

بمعنى أن الاطمئنان وسكينة القلب قد غمراه، وكأن القرآن ينزل عليه

٢٠ مسلم، البر، ١٦٥. الترمذي، الزهد، ٥٠. المسند، ٣٩٢/١.
 ٢١ المسند ٤/٩٠ البيهقي، دلائل النبوة ٣/٣٧٨-٣٧٩. يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة ١/٤٨١-٤٨٢ أبو داود، الطهارة، ٧٨

وهو يتلوه في الصلاة، وكان جبريل عليه السلام ينفثه في روعه، فينتشى بنشوة الوجد حتى لا يجد ألم السهم الذي انغرز في جسده.

وهذا هو موقف من جمع بين الجهادين، الأصغر والأكبر. بل هذا هو الوجه الحقيقي للجهاد.

قالت حفصة بنت عمر لأبيها: يا أبت إنه قد أوسع الله الرزق وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير فلو طعمت طعاما ألين من طعامك ولبست لباسا ألين من لباسك فقال: سأخاصمك إلى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقي من شدة العيش. قال فما زال يذكرها حتى أبكاهها ثم قال إني قد قلت لك إني والله لئن استطعت لأشاركنهما في عيشهما الشديد لعلني ألقى معهما عيشهما الرخي^{٢٢} هذا هو سبيل رسول الله ﷺ والصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. إنهم في حضور دائم مع الله واتصال مستمر وثيق معه. فكانت عباداتهم وأذكارهم من الكثرة والعمق بحيث من يشاهدهم يحسب أن ليس لهم شغل يشغلهم غير العبادة والذكر، هذا مع كمال إيفائهم لأمرهم الدنيوية ومشاغلتها.

نعم، انهم يمثلون خلاصة الإخلاص ولبّه، إذ ما كانوا يعملون عملاً إلا وفق مرضاة الله سبحانه، فكان كل عملهم في مراقبة عميقة دائمة لله، فهي أماننا مثال الإخلاص سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انه قطع الخطبة يوماً دون سبب. وقال: كنت يا عمر راعياً لإبل أبيك الخطاب.. ونزل من المنبر.

٢٢ أبو نعيم، حلية الأولياء ٤٨/١-٤٩. ابن سعد، الطبقات الكبرى ٣/٢٧٧-٢٧٨

وعندما سئل: ما الذي دفعك إلى هذا القول؟ أجاب: خطر بيالي أنني خليفة! عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا. فقال: أتاني الوفود سامعين مطيعين فدخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرهما^{٢٣}.

وقطع عمر بن عبد العزيز الخطبة على المنبر إذ خاف على نفسه العجب. وكتب مرة كتاباً فخاف فيه العجب فمزقه ويقول: اللهم أني أعوذ بك من شر نفسي.

إن جهاد هؤلاء الأبطال الذين بلغوا الكمال روحاً وتكاملوا بها، لن يبقى بلا ثمر، لأنه في سبيل الله. وعلى هذا فالذين يتباهون ويتفاخرون بأعمالهم باسم الجهاد هنا وهناك، ولم يصلحوا شؤونهم الداخلية ولم ينجوا من الرياء والعجب والغرور والكبر، أعمالهم تخريب أكثر من أن تكون تعميراً. بل حتى لو بلغوا مبلغاً معيناً في مرحلة ما فلن يبلغوا الغاية والنتيجة قطعاً.

هـ. جلب العناية الإلهية ودعوتها

الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تجمع الجهادين معاً كثيرة جداً. وما لاشك فيه أن سورة النصر في مقدمة هذه الآيات:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (سورة النصر)

فهذه السورة تبشر بمجيء نصر الله وفتحه حينما يدخل الناس أفواجا في دين الله. وهكذا كان. فحينما أزيلت العوائق أمام الجهاد الأصغر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الحق، ودخل الناس في الإسلام أفواجا، ففي هذه المرحلة يكون الأمر الإلهي هو:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ لأن جميع هذه الأمور ما هي إلا إحسان ونعمة إلهية بحته. إذ هو الذي خلقها كلها.

فعلى الإنسان الذي ظهر على الأعداء في الخارج، أن يظهر على نفسه أيضا في عالمه الداخلي، ليتم جهاده ويكتمل.

وفي ضوء هذا تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: كان الرسول ﷺ بعد نزول هذه السورة يردد باستمرار: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)^{٢٤}.

وفي حديث آخر يجمع الرسول ﷺ هذين الجهادين معا فيقول:

(عَيْنَانِ لَا تَمْسَهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تُحْرَسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)^{٢٥}

نعم، إن جهاد من يسهر على الحدود والثغور ويرابط في ميدان الحرب، وفي أخطر المواقع جهاد مادي. فالذي يؤدي هذا الجهاد لا تمس النار عينه. وعين أخرى تحقق الجهاد المعنوي الأكبر، عين تبكي من خشية الله.

٢٤ مسلم، الصلاة، ٢٢٠، المسند، ٣٤/٦

٢٥ الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢.

فهاتان العينان - في هذه البشرى النبوية - سواء في عدم مسهما النار .

نعم ، محال لدى الرحمة الإلهية ووعد القاطع أن تمس النار هاتين العينين كمحالية عودة اللبن إلى الضرع ! و واقع من يجاهد في سبيل الله أشعث أغبر لا يختلف عن هذا ، فقد بشر الرسول الكريم ﷺ في أحاديث كثيرة أن النار وهذا الغبار والتراب في سبيل الله لا يجتمعان .

نعم لا تمس النار تلك العيون التي تذرف الدموع ساخنة من خشية الله ، وتحرس وتراقب مواقع دخول العدو مرابطة في الثغور والمواقع الخطرة . فالذي ينذر نفسه لهذه الأمور ويحابه المهالك التي تحرق بالبلاد ويتصدى لها بإنشاء مؤسسات يترى فيها أبناء أمته بمستوى يليق بالإنسان ، ويتجافى عن حفظ نفسه وأذواقها لأجل الآخرين ويستطيب راحة الآخرين وعيشهم الهنيء .. فهؤلاء لا تمس عيونهم النار . وعلى هذا فالذين يرون الجهاد جدالاً ونقاشاً هنا وهناك إن لم يراقبوا أعمالهم و يقوموها بموازين الجهاد الذي ينادون به ، فإنهم لا يعملون إلا لقتل الوقت وخداع أنفسهم . فالذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة ولم يرغموا أنف الرياء ولم يسحقوا روح الافتخار ولم يجعلوه تحت أقدامهم ، ولم يقلعوا من أرواحهم الكبر على الآخرين والتظاهر أمامهم .. فأعمالهم لا تنفع شيئاً سوى كونها مصدراً لإحداث القلاقل والاضطرابات .

ومن جهة أخرى فالذين ينسحبون من الميدان ويقعون في زوايتهم آخذين نصيبهم من الجهاد من جهته المعنوية وحدها ويقولون: لا يصح الانشغال مع

الغير قبل جهاد النفس.. فهؤلاء الذين يرون إحراز درحات معنوية لأنفسهم وبلوغ المراتب الرفيعة التي يرونها فوق كل أمر، ويعزفون عن إرشاد الناس، هم بلا شك على خطأ واضح حيث يخلطون الإسلام بالروحانية الصوفية (مستيزم).

إن الفكر المهيمن على القائلين بإصلاح أنفسهم قبل دعوة الآخرين مكتفين بالجانب المعنوي من الجهاد فحسب هو: أن كل إنسان يحاسب بمفرده "فكل شاة تناط برجليها"، كما هو المثل العامي المشهور. وإن من لم يصالح نفسه أعجز في إصلاح غيره. لذا على المرء أن يلتفت إلى إصلاح نفسه أولاً.

فنقول لمن يستغرقه هذا الفكر: اعلم أن الإنسان حينما يظن أنه أنقذ نفسه فقد وقع من فوره في أخطر دوامة، فمن يطبق أن يدعي خلاص نفسه والقرآن الكريم يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩).

نعم إن الإنسان مكلف بالعبادة حتى الرمح الأخير، فلا يستطيع أن يحجم عن أي عمل كان في معنى العبودية لله، حتى يُرفع الستار ويدعى إلى العالم الآخر. فكيف يمكن لمن تستمر عليه مهمة التكليف هكذا، أن يقول: أكملت إنقاذ نفسي. بمعنى أن جهاد الإنسان مع نفسه وسعيه لتطهيرها وتزكيتها من الأخلاق الرذيلة، ومحاولة إصلاحها وتقويمها يدوم مادامت فيه الحياة.

نحن إذن مضطرون إلى العيش الدائم بين الخوف والرجاء، فكما لا يُخطر ببال المؤمن الاطمئنان إلى النتيجة فليس من صفاته القنوط أيضاً، إلا أن الخوف

لابد أن يكون أرجح في ميزانه في الدنيا. تأملوا في حال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في أنفاسه الأخيرة فيضطرب خشية الحساب، ولم يخفف قلقه واضطرابه هذا إلاّ بشاره ابن عباس له إذ قال: أشهد لك يوم القيامة بأنك صالح.^{٢٦} نعم ألم يذكرنا القرآن الكريم بـ «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» (الرحمن: ٤٦)؟

و . فهم السلف

لم يفهم الجهاد على وجه واحد من هذين الوجهين أحد من المرشدين الحقيقيين العظماء الذين ربّاهم الإسلام. فلم يتخلّفوا عن نشر الحق والصدع به قط حتى لو كانوا وراء قضبان السجون. وكذلك لم يرخوا عنان العلاقة القوية مع ربهم ولم يهملوا قطعاً دائرة القلب مهما بلغ ميدان عملهم من التوسع. بل أصبح كل ما أفيض عليهم في هذا المجال جزءاً من تكامل زلال المعرفة والعرفان عندهم فعاشوا دوماً بشعور الإحسان الإلهي، مستحضرين مراقبة الله لهم كل آن ومتقربين إليه سبحانه بعملهم هذا. إلى أن صار الرب جل وعلا بصرهم الذي يبصرون به ويدهم التي يبطشون بها.. فبارك الله فيهم حتى صار الفرد منهم ألوفاً.

ز . ما يجب على إنساننا اليوم

إن إنساننا في الوقت الحاضر، إن كان يريد أن يجاهد في سبيل الله حتى

٢٦ ابن سعد، الطبقات ٣/٣٥٢

جهاده وبما يرضيه - وهذا ما يجب عليه - عليه أن يراقب نفسه مراقبة جادة ومحاسب رغباته حساباً عسيراً، في الوقت الذي يزاول نشر الحق وتبليغ الحقيقة للآخرين. وإلاّ فهناك احتمال قوي أن يخادع نفسه، وعند ذلك لا ينتفع بعمله ولا ينتفع به غيره .

المجاهد يحمل من الإخلاص ما يجعله يختار الله على كل ما سواه، فهو إنسان خالص مخلص، ذو قلب حيّ.. وبذلك يكون الجهاد مثمراً وباقياً. فهو بدلاً من أن يملأ عقول الآخرين بأكوام من الغث والسمين من المعلومات، عليه أن يقرّ في قلوبهم وعقولهم الإخلاص وحسن النية وروح المحاسبة الداخلية والشعور بأن يكونوا رجال القلب.

نعم ، الجهاد موازنة بين فتح الداخل والخارج. ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه. فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال جهاد أصغر. فإذا ما افترق أحدهما عن الآخر ينتفي معنى الجهاد عن عمله. فيتولد من أحدهما الدلّ والمسكنة ومن الآخر العنف والإرهاب. ونحن ننتظر ولادة روح محمدي، وهذا لا يمكن إلاّ باتباع الرسول ﷺ في هذا الأمر كما في كل أمر.

فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم. وما أسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضم العمل لإنقاذ غيرهم.

الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة. لأنه مهما بذلنا من جهد في سبيل إنقاذ الإنسانية فلا بد أن يظل كفار يصرون على كفرهم. وهذا يعني استمرار الجهاد، إذ نحن مكلفون بتعريف ربنا الجليل إلى الناس كافة. فإن اعترض أحد سبيلنا في التبليغ، وأراد أن يصرفنا عن مهمتنا وهي مهمة خالصة نقية حملناها، فلا مفر من اللجوء إلى الجهاد المادي. نحن مضطرون إلى الانتصار و الظهور في كلا الجهادين المادي والمعنوي، إذ بخلافه نفقد حق الحياة ومتطلباتها كإنسان. فلقد ضحى أجدادنا في فترة من الزمن بحياتهم لأجل هذا، إذ لما أراد "الصليب" أن يعترض هذا المفهوم الإنساني الذي يحملونه، وجدوا إزالة المانع في إعداد القوة. وهذا هو معنى الحروب التي خاضها أجدادنا وهذا هو مغزاها.

وحاشا أن تكون لهم غاية سوى التبليغ، وحاشا أن يكون الدافع عندهم حب الاستيلاء والسيطرة على الأماكن، بل كانوا عشاق "إعلاء كلمة الله" وما كان يهمهم شئ إلا إبلاغ حقيقة "لا إله إلا الله" إلى أرجاء الأرض كافة، حتى لا تبقى عليها نقطة مظلمة لم تنتور بنور الإيمان. فكانهم كانوا مؤذني أزمانهم على منائر، رافعين صوتههم بالأذان معلنين الإيمان إلى أرجاء الأرض كافة. نعم إن كلمة "لا إله إلا الله" هي التي رُتت في الآفاق من منائر هذه الأمة بلسان الجيش وقرقعة الأسلحة، فلم يك فينا يوماً حب الاستيلاء والسيطرة على الأقوام. فالأذان الذي رفعه السلطان محمد الفاتح وأمثاله من منائر الدولة العثمانية قد بلغت أصداءه أقصى الظلمات في العالم فنورها بـ"لا إله إلا الله" حتى إننا نشاهد من لبى هذا النداء وشهد هذا الأذان الرفيع في

ميدان واسع يمتد من غابات بلغراد إلى سفوح هملايا، بل نسمع صدها حتى من موجات المحيطات المتلاطمة.

نعم، الجهاد ماض إلى يوم القيامة، لأجل إنارة كل زاوية مظلمة، وحمل نور اسم رسول الله ﷺ إلى كل بقعة، وإضاءة كل ناحية في العالم بنور القرآن المبين، والمؤمنون سيمضون بالجهاد المادي أيضا ليحققوا دورهم في إقامة التوازن بين الأمم والدول ليحفظوا باسم "الأمة الوسط".

ونحن كأمة مكلفون بإحراز هذا الموقع الرفيع.. وهدفنا هو هذا لا غير.. لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

هذا يعني: إننا جعلناكم وسطاً لما يحدث بين الدول، وعنصر توازن بين الأمم وشاهداً للاستقامة.. فهو سبحانه يدعونا لترقي قمة هملايا ونبليج ذروة "حراء" لنشارك مشاركة شعورية بما كان الرسول ﷺ يستشعر به، فيدعونا إلى التكامل بذاتنا وفطرتنا الموهوبة لنا. ونحن بدورنا إما أن نعقد العزم ونجدده لترقي تلك القمة، أو نتقاعس راضين بما نحن فيه فنتردى إلى أسفل سافلين وننسحق تحت الأقدام.

وظائف الجهاد

الفصل الثاني

١. الجهاد مهمة الأنبياء والرسل

إن من يجاهد في سبيل الله ويستغي مرضاة ربه بامثال دعوته، لا يُنظر إليه نظرة إنسان اعتيادي في مستوى بقية الناس، ذلك لأنه اتخذ الغاية التي بُعث بها الأنبياء والرسل الكرام - صلوات الله عليهم - هدفاً له. ولنمثل هذا بمثال للتوضيح:

من المعلوم أن لكل إنسان مسلكاً معيناً ووظيفة تخصه، وهذه الوظيفة خصائصها، فمثلاً الخلاق، أو التجار، أو السراج أو صاحب مهنة أخرى، كل منهم له هدفه المعين. ويقدر وضعه الحالي وفق ذلك الهدف. ومن جانب آخر فإن كل مهنة تَحْرُز الأهمية بنسبة بعدها وقربها من ذلك الهدف المعين لها. فأهمية مهنة الخلاقة - والخلاق أيضاً من جهة - تقاس بالنسبة لذلك الهدف وقس عليها المهن الأخرى، فالتائب في البرلمان مثلاً، أو رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية - إن عدّت الرئاسة مهنة ووظيفة - يجري المقياس نفسه على هذه الوظائف كلها، أي تُحْرَز الأهمية وفق الهدف المعين.

إن مهمة النبوة أقدس وظيفة عهد بها إلى أشخاص أختار مصطفين من بين الناس. أما وظيفتهم فهي التعريف بالله، وبالدين الذي تلقوه منه سبحانه. فهم بهذا التبليغ يعلمون الإنسان الذي بدأ من نقطة مستقدرة وينتهي إلى جثة نتنة، طرق البلوغ إلى عالم الخلود، إلى عالم الأبدية والاستقرار في مواطن

السعادة والرفعة الدائمة. وبذلك تطمئن قلوبهم المحتاجة والمشنقة إلى البقاء والأبدية، بالإيمان بالبقاء والدنو إلى الأبدية.

إن الهدف المقدّر في مهمة النبوة هو الإيمان بالله ومعرفته تعالى وإبلاغ الإنسان طريق الخلود بتلك المعرفة والإيمان. ووصوله إلى الله سبحانه بعد عبوره من هذه الدنيا. وإراءته جلوات البقاء والخلود في هذا العالم الفاني، واستشعاره بألوان الوجود في الفناء. حتى يبلغ بأفكاره مبلغ الهالة المشعة بالأبدية ولا يرى نفسه إلاّ تحت ظل قوس نصر الخلود العظيم.

فالذين يفجرون هذه الماهية المغروزة في فطرة الإنسان المرشح للخلود، هم الأنبياء والرسل الكرام الذين قلدوا وظيفة النبوة.

فالنبوة بهذا هي أقدس وأزهر مهمة عند الله، حتى أنه سبحانه وتعالى وجّه الأنظار بعد ألوهيته جل جلاله إليها. هذا وإن أقدس وظيفة في هذه المهمة المقدسة هي الجهاد. إذ هو الوسيلة والوسيلة التي توصل إلى النقطة النهائية المهمة المقدسة، فهي إذن مقدسة ومنزهة مثلها.

ومما يفيد قدسية هذه المهمة الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِمَا كُنْتُمْ آلَافِيهِ فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾
(التوبة: ١١١).

بمعنى أن الذين يبيعون ما لديهم من وجود مادي من نفس ومال سيفوزون مقابلها بالجنة وسيحفظون برضى الله جل وعلا.

والقرآن الكريم باستعماله كلمة البيع والشراء يسمو بمرتبة الإنسان إلى مرتبة المخاطب لربه الجليل الذي يعقد معه سبحانه الموائيق والعهود. والرسول ﷺ يذكر في حديث شريف له: (كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَاطُ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيُؤْمَنُ مِنْ فَتَانِ الْقَبْرِ).^{٢٧}

٢٧ أبو داود، الجهاد، ١٦، المسند، ٢٠/٦.

٢. الجهاد شهادة للحق

إن أحد جوانب الجهاد هو أداء مهمة الشهادة للحق، إذ كما يسمع - في المحاكم - إلى أقوال الشهود، إحقاقاً للحق، ومن ثم يُقضى وفق شهاداتهم. كذلك المجاهدون في أثناء تحاكمهم مع جبهة الكفر والإنكار على الأرض، يشهدون لله بأعلى صوته قائلين "الله موجود" بل يُسمعون الأرض والسماء هتافهم. والآية الكريمة تبين لنا هذه الحقيقة بجلاء:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨).

نعم، إن ذكر هذه الشهادات الثلاث في موضع واحد جنباً إلى جنب، ينطوي على مغزى عميق.

(١) إن الله ﷻ يشهد على وجوده بذاته جل وعلا. والكاملون الذين بلغوا الحقيقة، يستشعرون بهذه الشهادة في وجدانهم شعوراً عميقاً وراسخاً بما لا يمكن توضيحها بالكتب.

(٢) والملائكة أيضا شهود على وجود الله ﷻ، فالملائكة المخلوقون من نور خالص، فطرتهم صافية نقية لا تشوبها شائبة قط، حتى عجز الشيطان أن يُدخل فيهم الكفر والضلال. ففطرتهم الأصلية لم تتغير قط. فهم كالمرايا

المجلوة في الصفاء والنقاء. فتشاهد في هذه الماهيات النزيهة أيضا تجلياته ﷺ
وَتَسْتَشْعِرُهَا وَتُقِرُّ بِهَا.

٣) وأولو العلم أيضا يشهدون بوجود الله سبحانه.

فهذه الشهادات الثلاث كافية ووافية لإثبات وجود الله سبحانه حتى لو
أنكرت الدنيا قاطبة وجوده تعالى .

نعم، انه كذلك، إذ نشعر بهذه الحقيقة بجلائها وعظمتها في وجداننا حتى
لا نجد داعياً إلى أي دليل آخر. فهذه الشهادة كافية ووافية كذلك لسكنة الملائكة
الأعلى.

والذين صمّوا آذانهم وأعموا أبصارهم ولم يعودوا يدركون الآيات المبثوثة
في الكون ولا يسمعون أصواتها الندية ويعجزون عن رؤية آثاره ﷺ في ملامح
صنعتة الباهرة في آفاق الأرض كافة، تكفيهم هذه الشهادة، شهادة أهل العلم.
والجاهدون شهود الله، وسيهتفون بأصدائهم العذبة في المحاكم التي تنصب
للمنكرين قائلين: إنا شهداء الله.

وفي الحقيقة أن الأنبياء الكرام ما أرسلوا إلا لأداء هذه الشهادة على أفضل
وجه والقرآن الكريم يوضح هذه الحقيقة بالآية الكريمة:

﴿رُسُلًا مَّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ
يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿ (النساء: ١٦٥-١٦٦).

وفي كل أمة من الأمم نبي كريم ينير لهم الطريق. أما خاتم النبيين والرسول

سيد الكونين والثقلين فقد أرسل إلى الإنسانية كافة لينير لها الطريق. ويذكرنا القرآن الكريم بهذه الحقيقة بالآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥) وكلمة النبي في خطاب "يا أيها النبي" المعرفة بـ"ال" التعريف تعني نبياً معروفاً. أي أن نبوة هذا النبي معروفة وواضحة من كل جهة تنظر إليها. بل إن نبوته معروفة ومشهودة حتى عند الجمادات بسلامها عليه^{٢٨}، و النباتات^{٢٩} والحيوانات^{٣٠} بانقيادها وخضوعها لأوامره، فهو نبي كريم معروف عند المخلوقات قاطبة، مما لا يمكن إنكار نبوته قط. فلقد لانت أقسى القلوب وأغلظها أمامه صلى الله عليه وسلم. أفلا يثبت هذا انه النبي المعروف^{١٩}!

أما كلمة "أرسلناك" في الآية الكريمة المذكورة، فهي بصيغة المخاطب "ك" وفيها إيماء وتلميح ورحمة إلى من هو رحمة للعالمين.

أما "شاهداً" فيعني: انه سبحانه يقول لنبيه: إنا أرسلناك شاهداً للإنسانية، لتبلغ الناس كافة بأنني موجود فتعرفهم بي، وتكون شاهدي عليهم ولو كذبك العالم أجمع وأنكروا عليك. فأنت تعلن وتبلغ وجودي. فأنت شاهد في هذه المنزلة. ثم أن جماعة الشهود يخلفونك ويسمرون وراءك، فهم شهداء على الإنسانية وأنت شاهد عليهم، تشهد لشهادتهم، فشهادة أمته ﷺ هذه سترفع مسؤوليات بعض الأنبياء في يوم الحشر الأعظم، كما ورد ذلك في الحديث

٢٨ انظر : مسلم، فضائل، ١

٢٩ انظر ابن ماجه، العتن، ٢٣. المسند، ٣ / ١١٣

٣٠ انظر : المسند ٤ / ١٧٠-١٧١. مجمع الزوائد ٩ / ٤

الشريف: "قال رسول الله ﷺ: " يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه فيُقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، أو ما أتانا من أحد. قال: فيُقال لنوح: مَنْ يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: الوسط العدل، قال: فيدعون فيشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم^{٣١}.

٣١ البخاري، الإعتصام ١٩، المسند ٣/٣٢. ابن ماجه، الزهد، ٣٤.

٣. الجهاد منبع الحياة

الجهاد منبع يتدفق بالحياة، فيجعل المسلمين في حيوية مستديمة. فما من أمة حُرمت أفرادها من الجهاد المادي والمعنوي، إلّا ظهرت فيهم المشاحنات والمخاصمات الداخلية ففسدت الأمة من داخلها وتعفت. والعثمانيون يمثلون آخر مثال حي لهذه الحقيقة. ومما لا ريب فيه أن القدر قد حكم على العثمانيين - كما حكم على غيرهم من الأمم - بالنخر والفساد والعطب. ولا جرم أن لهذا الأمر أسبابه الخاصة به. إذ لو انغمس حكام في حياة الشهوات والرذائل في القصور وأهملوا إعلاء كلمة الله، ودبت رشاوتهم وإهمالهم هذا في صفوف الجيش، فإن الدولة تفقد موقعها المرموق بين الدول فضلاً عن البؤس والشقاء الأبدي الذي يلحق بالأمة مع المخاصمات والمشاحنات الداخلية التي لانهاية لها. نعم إن هذه المخاصمات الداخلية هي التي أدت إلى انهيار دولة عظيمة عليّة. وأنهت وجودها من على الأرض.

ونحن منذ تركنا الجهاد نمت فينا الفرق والتخريب، وما نشاهده في الوقت الحاضر من التكتلات والتخريبات والفرق ليست إلّا ثماراً من حنظل وزقوم نمت من تلك البذور الجهنمية التي نثرت في تلك الفترة. ولا خلاص من هذه الحالة المميتة إلا بالجهاد. فالجهاد للمؤمن أسمى غاية وأعلى مثل يمكنه أن

يضحي له بنفسه. إذ يحظى المؤمن بالتطهر الكامل بالانغماس في عرقه والتوضؤ بدمه وما ذلك إلا بالجهاد.

ومن الذين ذاقوا طعم هذه اللذة الرفيعة هو حرام بن ملحان في أثناء سقوطه إلى الأرض بعدما أصيب بسهم في صدره وهو يقول: فزت وربّ الكعبة.^{٣٢} فلو أجرينا مقارنة بين ما غنمه "حرام بن ملحان" وما ذاق في سبيل الله من ذوق رفيع، ندرك عندئذ مدى فوزه حقاً. نعم الجهاد أربح تجارة. والله ﷻ يدعونا إلى هذه التجارة الراجحة بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *﴾ (الصف: ١٠-١١).

بمعنى أن الله سبحانه يقول: إنني أدعوكم أيها المؤمنون إلى أربح تجارة وأعظمها حيث تفوزون بحياة خالدة عزيزة سعيدة في الجنة فضلاً عن نجاتكم من نار جهنم.

نعم، الجهاد الذي هو إنارة كل موضع في الأرض وإبلاغ أنوار اسم سيد المرسلين إلى أشد الأماكن ظلاماً، وإنارة للعالم كله بنور القرآن المبين.. هذا الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة. وسيظل المؤمنون في مستوى المسؤولية لأداء مهمة الأمة الوسط وحققها بين الدول والشعوب.

٣٢ البخاري، الجهاد، ٩. مسلم، الأمانة، ١٤٧.

٤. الجهاد شعور سام

إن أعظم شعور يتبغي أن يتنبّه لدى المؤمن هو شعوره بالجهاد. فلا يعدّ من الأحياء من لا يحمل هذا الشعور بل لا فرق بينه وبين شواهد القبور. إنه حقاً يمثل ويرمز إلى الأموات. ولا ينظر إليه الرب الرحيم بنظر الرحمة قطعاً. لأنّ الذي لم ينذر نفسه لتبليغ اسم الله في الأرجاء ولم يتخذ هدفاً وغاية له، لا فرق بينه وبين الجمادات، إذ الإنسان يكتسب الحياة والحيوية بمقدار ما يحمل من روح الجهاد. لأنه لا يستطيع أن يحى نفسه وعائلته وأمه ويقيهم من الموت إلا بالجهاد. نعم الحياة الحقيقية لا تتحقق إلا بالجهاد. وإن أفضل وأنبل خطوة يخطوها الإنسان وأعظمها وأسمها وأكثرها فائدة وشاراً هي الخطوة التي يخطوها نحو الجهاد.

إن من أهم ما يلفت النظر من خصائص الرسول الكريم ﷺ ضمن عظيم إصلاحاته هو تكوينه لجماعة لا ترهب الموت، ولا تتراجع عما رأته صواباً في طريق الحق، وتحفظ بأقصى درجات الحيوية والنشاط.. هذه الجماعة كانت دائمة التفكير بالجهاد بل كشفت سرّ الخلود بهذه الوسيلة، وسيخلّدون إذ لا تغلق دفاتر حسناتهم إلى يوم القيامة بفضل ما قدّموه من تضحيات جسام، بعدما اقتحموا المصاعب والمهالك في سبيل نشر الإيمان. نعم، إننا وجميع من

سبقنا من الأجيال وكل الأجيال المقبلة في ذكر مستمر غناستهم وأفضالهم علينا مع أنهم قد ارتحلوا عن هذه الدنيا من الناحية المادية.

وعندما يؤمن الإنسان بالعالم الآخر يصبح الجهاد أسمى فكر وأطيب غاية وأرفع أمنية لديه. فالشعور الذي تنامي واكتمل لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين هو هذا الشعور والفهم والإدراك. فتراهم يتسابقون في الاشتراك في بدر، ويقف الأطفال منتصبين على أصابع أقدامهم كي يظهروا طوالاً كبيراً لأجل الاشتراك في الحرب، ويحزن الذين لم يشترك منهم في الحرب.. ٣٣

إذ كانوا يقولون: لِمَ يجعلنا الرسول ﷺ مع النساء؟ أليس الجهاد من عمل الرجال، فلمَ نَظَلْ في بيوتنا مثل النساء؟ وبهذا الشعور السامي انطلقت تلك الجماعة السعيدة المحظوظة إلى بدر، إلى جهاد يغير مجرى قدر الإنسانية. إذ كان الأمر حتى ذلك الوقت منحصراً في الإرشاد والتبليغ.

ولكن ما إن واجه الكافر المؤمن، وأتى الرسول ﷺ الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، استشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، (فقام أبو بكر ﷺ فقال فأحسن، ثم قام عمر ﷺ فقال، فأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون،

٣٣ انظر الميثمي جمع الزوائد ٦٩/٦ الكاندهلوي، حياة الصحابة ٩٣/٢-٩٤

فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى "برك الغماد" - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير. ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علي أيها الناس - وإنما يريد الأنصار - وذلك لأنهم كانوا عدد الناس - أي جمهورهم - قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل فقال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جمعت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك إن استعرضت بنا هذا البحر فنخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء... ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامض له، فصل جبال من شئت، واقطع جبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت... فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: (سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم)^{٣٤} فكان الصحابة الكرام في جيشان وحماس حتى قال الدين ولوا الدبر من الكفار وفرّوا إلى مكة:

إنهم هجموا علينا هجمة واحدة فكاننا موثقون فاستسلمنا لهم فكانوا يضرّون منا فوق الأعناق وكل بنان^{٣٥}.

٣٤ البيهقي، دلائل النبوة، ١٠٧/٣. ابن هشام السيرة، ٢٦٧/٢، ٢٦٦، ابن كثير، التفسير ٥٥٥/٣ (باختصار)

٣٥ تفسير الطبري ١٩٧/٩-٢٠٥

نعم إن الجهاد فرض وواجب لاستمرار هيمنة دين الإسلام الحنيف ولنجاة المسلمين من الذل والخنوع وليعيشوا كرماء أحرار. فإن لم تكن في مجتمع إسلامي طائفة تؤدي هذه الوظيفة - التي يأمر بها القرآن^{٣٦} فلا حياة إسلامية إذن. وحتى لو كانت هناك حياة إسلامية فردية فهي بلا سند ولا مرتكز. وحينما يترك المسلمون هذه الوظيفة ينقلبون على أعقابهم ويهرون حتى لو اجتازوا الفضاء الواسع وربطوا بين النجوم والكواكب. فلا ينجيهم ما بلغوا من الرقي والتكنولوجيا والصناعات وحدها ما هم فيه من الهاوية. فالجهاد فرض كفاية، إن لم يؤديه أحدٌ في زماننا هذا وعلى وجهه الأمل وأهمل كلياً، يصبح فرض عين على كل فرد ويكون مسؤولاً عنه أمام الله.

والدولة كذلك عليها القيام بالجهاد المنظم. فأحياناً يتعهد الجيش بوظيفة الجهاد وأحياناً تتولاه قوى الأمن الداخلي، فكلهما يجاهدان المعتدين من الخارج والداخل. فجهاد الأمة العسكرية المجاهدة شامل للعالم كله، لأن الأمة المجاهدة عنصر توازن بين الدول وقد عهد إليها ﷺ هذه المهمة الجليلة.

ولأجل أن تكون الأمة عنصر توازن على الأرض لابد أن يكون الجيش على مستوى الإدراك لهذه الوظيفة التي هي أقدس وظيفة وأجلّها. فلا توازن على الأرض ما لم تكن عليها أمة تتعهد القيام بهذه المهمة.

وكم هو مؤلم أن المؤمنين منذ قرنين أو ثلاثة قرون صاروا العوبة بأيدي آخرين يتحكمون في إقامة التوازن، فلا يقدرّون أن يؤديوا دورهم في التوازن

٣٦ انظر سورة آل عمران: ١٠٤

العالمي. وقد أصبحت مساجد المؤمنين مأوى المساكين والخاملين، وغدت زواياهم وكر المحرومين من العشق، وتحولت مدارسهم إلى موضع تدريس الثقافة الغربية المادية (سكولاستيك) حتى باتوا يبينون قضاياهم وكأنهم في دهاليز القرون الوسطى. وكيف يستطيع المحرومون عن إدراك عصرهم أن يفرضوا ثقلهم في التوازن الدولي ؟

وأعتقد أنه لا يمكن العمل باسم الإسلام ما لم يسبق المؤمنون عصرهم في مضمار التقنية، وما لم يعيشوا حياة العشق والوجد كالصحابة الكرام، وما لم يرتبطوا بالله برباط وثيق من العبادة والطاعة كالتابعين الكرام. ذلك لأن الذي لا يعيش في مستوى عصره ولا يحل مشاكله وأدواءه بعلاجات ذلك العصر، لا يمكنه أن يعمل شيئاً باسم الإسلام.

إن كل أمة أو فرد يحمل عزة إسلامية لا بد أن يعدّ نفسه مأموراً بهذه المهمة الجليلة، مهمة الجهاد، فالأمم أو الأفراد الذين لا يستشعرون في أنفسهم مثل هذه المسؤولية، ليس لهم حظ من العزة الإسلامية.

إن الجهاد مهمة جليلة وتكليف عظيم ، لا بد أن تنذر جماعة نفسها له وتكون في "رباط" دائم، وبهذه الرابطة و العيون الساهرة تنجو الأمة بكاملها من كل خطر يحدق بها وتصد كل هجوم مادي ومعنوي متوقع من قبل الأعداء الداخلين أو الخارجيين. وتصبح دقائق و ثواني حياة "المرابطين" الساعين في هذه المهمة مباركة كالسنوات، وسنواتهم كالعصور. فما أسعدهم! ينالون الخلود وهم مازالوا في هذه الدنيا. ذلك لأنهم قد نذروا

حياتهم لهذه المهمة فيصبح ماكلهم ومشربهم ومنامهم ويقظتهم في حكم عبادة مقبولة مثاب عليها.

ومن المعلوم أن الحسن والجمال ينقسم إلى قسمين: حُسن لعينه وحسن لغيره، فالحسن لعينه هو بذاته حسن، أما إن لم يكن حسناً بذاته ولكن بنتائجه، فهو حسن لغيره. والجهاد ضمن هذا القسم الثاني. وهذا يعني:

أن الجهاد ليس جميلاً بذاته، لما فيه من قتل وخراب، ولكن الذي يجمل الجهاد ويحسنه أنه وسيلة لأمر حسنة. فمثلاً: الجهاد وسيلة لإعلاء كلمة الله، ولجعل المؤمن في وضع يُعده ليهيمن على موازنة الأمور في الأرض، ولصد الاعتداء على الإسلام والمسلمين، ولتعهد المظلومين والضعفاء... فالجهاد من هذه الجوانب جميل. لذا يصح القول: أن جمال الجهاد وحسنه مشروط بإعلاء كلمة الله.

نعم يجاهد المؤمن فيعتلى الفرس ويركب الطائرة ويقود الدبابة ويستعمل الصواريخ.... ولكن لا يستعمل كل هذا إلا لإعلاء كلمة الله.

نعم، الجهاد الذي أمر به المؤمن هو هذا. فليس جهاداً إن كان لغير وجه الله كأن يكون للحمية والدم والعرق، أو لأي إسم آخر. فالرسول صلى الله عليه وسلم يبين الجهاد بوضوح في حديثه الذي يرويه الإمامان البخاري ومسلم إذ يقول: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الثَّلَاثَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).^{٣٧} ومفهومه المخالف: أن من لم يقاتل لإعلاء كلمة الله ولرفع رايته في أفاق

٣٧ البخاري، العلم، ٤٥، الجهاد، ١٥. مسلم، الإمارة، ١٤٩-١٥١ أبو داود، الجهاد ٢٦

العالم، فليس له حظ من الجهاد، وبدوره فلا جمال ولا حسن فيه. نعم، إن الجهاد هو ما كان لإعلاء كلمة الله، والجهاد إنما يجاهد لإعلاء كلمة الله، وإنارة كل ظلام على الأرض، فيقطع البراري والفيافي ويتجاوز الجبال والغابات حتى إذا بلغ البحر المحيط يقول كما قال عقبة بن نافع رضي الله عنه: (يَا رَبِّ لَوْلَا هَذَا الْبَحْرُ لَمَضَيْتُ فِي الْبِلَادِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِكَ)^{٣٨} فلو وضعوه وحده في جزيرة نائية لنقّب عن وسيلة في أبعاد أخرى لإعلاء كلمة الله، وربما بلغ الجن والأرواح الخبيثة كلمة الله، ولكأن الرسول ﷺ قد قال لأمثال هؤلاء: (الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة).^{٣٩}

جاء رجل عقب فتح مكة وسأل الرسول ﷺ قائلاً: يا رسول الله إني أريد الهجرة. فأجابه الرسول ﷺ (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية)^{٤٠} فكان للهجرة معنى ومغزى قبل فتح مكة، إذ كانت تعني الجهاد. أما بعد الفتح فقد بلغت الهجرة بعداً مهماً آخر من أبعاد الجهاد. أي إن الهجرة لكونها هجرة لم تعد جهاداً. نعم ليست جهاداً ولكن - من جهة - تتحقق بالجهاد.

فلم تعد الهجرة تعني انتقال المرء من مكان إلى آخر. بل يمكن للمؤمن أن يجاهد في موضعه. وهذا يعني تحويل كل إنسان ما حوله إلى حداثق وارفة ومحيطه إلى بساتين غناء. وإذا ما اقتضى الأمر إلى الانتقال فلا شك أنه مستعد لذلك ويقوم به.

٣٨ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٠٦/٤.

٣٩ الهيثمي، مجمع الزوائد ١٠٦/٥.

٤٠ البخاري، الجهاد ٢٧. مسلم، الإمارة، ٨٥. أبو داود، الجهاد، ٢.

٥. الجهاد مرتع واسع للبركة والعطاء

لا شك أن ما يؤدي إلى الخير خير مثله، كما أن ما يؤدي إلى الشر شر مثله. فالذي نذر نفسه وحياته للخير وربطها لعمل الخير فإن يومه ليس أربعاً وعشرين ساعة، بل سنين طوالاً. لأن ساعات يومه الأربع والعشرين تسجل كلها حسناتٍ له في دفتر أعماله، فإذا هو وهب نفسه لدعوته وعاش في حب الحقيقة والهيام بالحق فإنه يحظى باللامحدود في هذا العمر المحدود، حتى في أثناء نومه ويقظته وفي مشربه ومأكله وفي حلّه وترحاله. وإن الله ﷻ ينير النقاط المظلمة في حياته جزاء نيته الحسنة وتخطيطه المتقن لأجزاء حياته وفق تفكيره الحسن لدعوته، ويوصله بفضلته وكرمه إلى آفاق منيرة. فلا تبقى نقطة سوداء في حياة من وهب نفسه في سبيل الله. فليله كنهاره. نعم إن كل ثانية من عمره بمثابة سنين من العبادة، كيف لا وهو في طريق الخير. إذ كل ما يبذل في سبيل الباقي الحقيقي له ثواب عظيم مهما طال أو قصر، ولهذا فإن لحظة واحدة منه خير من ألف سنين من حياة ميتة عقيمة.

ولأن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين أدركوا هذا السر كانوا يراجعون الرسول ﷺ و يسألونه المزيد من طرق الخير. حتى كان منهم من يسأل: (دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ)^{٤١}.

٤١ البخاري، الزكاة، ١

فهؤلاء الذين استقارت عقولهم بمعرفة الله كانوا في بحث دائم عن طرق أبواب الخير. وهذا يعني تحريمهم عن وسائل تيسر لهم سلوك الطريق نحو الخلود والأبدية. فاستفساراتهم من الرسول ﷺ لم تفتربحثاً عن طرق الخير، حتى كأنهم يتسابقون في هذا السبيل. ولهذا نرى أن الجميع رجالاً ونساءً وشبياً وشباباً في جد وجهد دؤوب في الخير وإحجام وامتناع حازم عن كل ما يحول دونه.

فمنهم مثلاً:

لسبية المازسية: امرأة أمضت حياتها بالجهاد. نذرت نفسها مع زوجها وأولادها أن يكونوا في إمرة الرسول الكريم ﷺ، عندما تشرفت المدينة المنورة بهجرة الرسول ﷺ إليها، فاشتركت في بدر وأحد. كانت، تداوي الجرحى وتضمدهم. ولكن ما أن حمى الوطيس حتى خاضت غمار الحرب قاتلت قتال الأبطال. فغايتها الوحيدة وأمنيتها العظيمة في كل حركاتها وسكناتها أن تكون مشاركة في الجهاد مع رسول الله ﷺ. وربما عاشت أخرج فترة من فترات حياتها وأكثرها قلقاً واضطراباً عندما أبلغها الرسول الكريم ﷺ إلا تشترك في الغزوات مع الرجال بعد نزول آية الحجاب. حتى أنها قالت وهي تبكي: كيف أظل هنا وأنت تجاهد يا رسول الله ﷺ؟ فحزنت حزناً شديداً لبقائها بعيدة عن طريق للخير.

وهذا ابن عمر يقول: كنت في الثالثة عشرة من عمري يوم خرج الرسول

٤٢ الكاندهلوي، حياة الصحابة، ١/٥٩٧، ٥٩٨ ابن الأثير، أسد الغابة ٩/٢٨٠. ابن حجر، الإصابة ٤١٨/٤

ﷺ إلى بدر، فأشار إليّ بإصبعه: تراجع. وفي ليلتها ما إن دخلت الفراش، أقسم بالله أنني لم أكره مثل تلك الليلة.^{٤٣}

وهذا عمر بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، كان غلاماً يوم بدر لا يتجاوز الثالثة عشر من العمر. فكان ينتصب على أصابع قدميه ليظهر طويلاً كي يشارك في الجهاد. وما أن قبله الرسول ﷺ حتى طار فرحاً حيث قد فتح الرسول ﷺ له باباً إلى الخير. فدخل من هذا الباب واستشهد.^{٤٤}

وأبو سفیان الذي عادى الرسول ﷺ حتى يوم فتح مكة، ولكن بعدما أسلم كان يبحث دوماً عن باب للخير. فوجد ضالته في الجهاد. وأصيب في عينه بسهم من العدو فخطب عينه المفقوءة: وما كان نفعك ولم تبصري صاحبك سبعين سنة. فرماها واقتحم صفوف العدو.^{٤٥}

وحارث بن هشام كان مع جيش المسلمين الأبطال العشرة آلاف مقابل مائة ألف من جيش البيزنطيين. فيقول: يا من قاتلتكم في بدر بين يدي رسول الله ﷺ وجاهدتم بأنفسكم في أحد وبايعتم رسول الله ﷺ في الحديبية - حيث لم يكن هو من بين هؤلاء - تعالوا لنرفع هذه الراية ونتكاتف ونعاون لئلا تسقط على الأرض.^{٤٦} وهكذا لم تسقط تلك الراية على الأرض، نعم لم تسقط على الرغم من أيدي تبادلتها، لم تسقط على الرغم من أيدي قطعت لأجل رفعها،

٤٣ على المتقى، كنز العمال، ١٣/٤٧٦.

٤٤ ابن الأثير، أسد الغابة، ٤/٣٠٠.

٤٥ انظر ابن الأثير: أسد الغابة، ٦/١٤٩.

٤٦ انظر ابن حجر، الإصابة ١/٢٩٤. ابن الأثير، أسد الغابة ١/٤٦٠، على المتقى، الكنز ٥/٣١٠. الحاكم، المستدرک ٣/٢٤٢.

فصانوها من السقوط بأيديهم حتى قطعت وأرجلهم حتى قطعت، وأجسادهم حتى الشهادة.. فلم تسقط على الأرض.. فلئن تقدم العدو في ذلك اليوم خطوة فإنما كان على أشلاء الأبطال من أمثال حارث بن هشام حتى صار أوصالاً مقطعة.

فالجهد هؤلاء بلاء لا يداوى إلا بالجهد.

واستأذن سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه سيدنا أبا بكر رضي الله عنه مرات ومرات ليغادر المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، ولكن أبا بكر كان يرفض طلبه كل مرة إذ كان يراه هدية تذكارية من رسول الله ﷺ له، ولكن بلالاً كان يتحرق شوقاً للجهد، فهو معتاد على امتشاق السيف في ميادين الحرب، ورفع الراية، فلقد صاحب رسول الله ﷺ في الجهاد، لذا صعب عليه البقاء في المدينة لأداء مهمة الأذان وحدها. فانتصب قائماً يوم الجمعة وفي أثناء الخطبة وقال: يا أبا بكر إن كنت أعثقتني لنفسك فاحبسني، وإن كنت أعثقتني لله ﷻ فذرني أذهب إلى الله ﷻ..^{٢٧} ويمضي بلال إلى الشام ويستشهد في معركة ويدفن في قبر مجهول. وما دفعه إلى تلك البقاع إلا جذوة الجهاد المتقدة في داخله.

أما أبو خيثمة فقد تأخر عن اللحاق برسول الله ﷺ وصحبه في خروجهم إلى تبوك فعذب هذا التأخر والتخلف وجدانه وأقلقه قلقاً شديداً حتى أسرع إلى جواده وتوجه نحو تبوك، وعندما كان الفرس يتعب يحمل سرجه على ظهره ويمشي مسرعاً ماضياً في سبيله إلى تبوك. وما أن شاهد الرسول ﷺ

٢٧ ابن الأثير، آمد الغابة ١/٢٤٤.

وصحبه - وهم على ماء - غباراً كثيفاً من جهة المدينة حتى قال: كن أبا خيشمة. وبعد هنيهة تراءى أبو خيشمة جلياً. فسُرَّ رسول الله ﷺ بمجيئه وبارك مقدمه. وقال أبو خيشمة وهو يلقي نفسه في أحضان الرسول ﷺ كدت أهلك يا رسول الله.^{٤٨} لأن التخلف عن الجهاد ذنب عظيم. كان أبو خيشمة يخشى أن يهلك بمثل هذا الذنب العظيم.

إن الجهاد باب للخير عظيم، فالذي يدخل من هذا الباب لا بد أن يفوز بأحد الثوابين والخيرين، فإما يكون شهيداً فهي حياة خالدة أو مجاهداً وله نعم الدنيا والآخرة.

ففي الجهاد بركات عظيمة أمثال هذه.

٤٨ مسلم، التوبة ٥٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/٢٧٨ ابن الأثير، اسد الغابة ٦/٩٣

٦. الجهاد منبع حياة لا موت فيه

انه لحقيقة لا مرأه فيها أن الذين يستشهدون في سبيل الله أحياء يُرزقون، والدليل على هذا آيات كريمة كثيرة وأحاديث شريفة كثيرة وحوادث تاريخية لا تحصى.

فمثلاً: سليمان شاه الذي كان من سادات العثمانيين ومن المجاهدين الأوائل، وهو الأخ الأكبر للسلطان مراد، كان المتوقع أن يتولى الحكم بعد والده، ولكنه كان يتولى تنظيم الهجمات والغارات على أوروبا ويقتحم البيزنطة من قبلها. وقد وفق إلى عبور جناق قلعة بالقوارب إلى جهة أوروبا وسيطر على غالي بولي، وضمّها إلى حكمه وتقدم حتى بلغ "بولايير" وكان الناس جميعاً يترقبون يوم توليه الحكم، إلا أنه استشعر في وجدانه بما يشبه بشارة من مكان قصي.. فجمع رؤساء المجاهدين الغزاة وخاطبهم: إذا مت في يومي هذا، فلن يفوت البيزنطيون الفرصة على أنفسهم، وسيعيدون الكر على المواضع التي فتحناها، فوصيتي إليكم أن تجتمعوا على جنازتي يداً بيد، وتهجموا على العدو هجمة رجل واحد متوكلين على الله، مستنديين إلى رسوله. وإياكم والتخلف عن الجهاد.

فلما أبكر وقعت قدم فرسه في حفرة، فوقع رأساً على عقب واستشهد. فوقع كما قال، و اجتمع الرؤساء على جنازته وأغاروا على العدو غارة رجل واحد فشتتوا جنود البيزنطيين أي تشتيت حتى لاذوا بالفرار. وقالوا لجنود

المسلمين بعد مدة: كان يتقدمكم في كل هجمة فارس شاب طويل القامة بعمامة خضراء صارم السيف، يشتت الجنود يمنة ويسرة.

وهذا يعني: أن الله ﷻ كما وكل ملكاً كريماً يحارب بدلاً عن سيدنا مصعب بن عمير ؓ بعد استشهاده في أحد،^١ وكما أنه ﷻ يديم معركة سيدنا حمزة ؓ العظيمة إلى يوم القيامة؛ كذلك يديم أعمال سليمان شاه الذي أراد إبلاغ اسم الرسول ﷺ إلى قلب أوروبا، حالما توفى. ذلك لأن الشهداء أحياء بنص القرآن الكريم.

وقد عبّر عن هذا أيضاً "هاملتون" قائد الجيش البريطاني في معارك جناق قلعة حيث قال: "ما كنا نهرب من حرايكم وبنادقكم بل ممن يتقدمونكم من شبان يافعين ذوي عمامات خضر، لا تؤثر فيهم قذائف المدافع وطلقات البنادق". فالشجعان الذين عبّر عنهم هاملتون هم أرواح الشهداء.. أولئك الأحياء دوماً حيث بلغوا مرتبة عدم الموت.

نعم إن المؤمن بعدما رضي أن يموت عزيزاً، فإن عزته ستدوم إلى يوم القيامة كراية خفاقة باسم الدين الذي آمن به.

نعم إن موتاً كهذا لا يحظى به إلا من استحقق الحياة وابتسم في وجه الموت، كأولئك الأبطال أبناء الأبطال.. فالجهاد حظ أولئك الأطهار القديسين الذين ولدوا أطهاراً، فلا يسعهم فخر الأمة وعزتها قبراً بل يدفنون في قلب الأمة الإسلامية.

٤٩ ابن سعد، الطبقات، ١٢١/٣. الواقدي، المغازي، ٢٣٤/١

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤).

نعم لو رفعت الغشاوة عن الأبصار سيَتَيَقَنُ كيف ينعم الشهداء في العالم الآخر. وإذا ما أَمَكَّنَ الإتصال بأرواحهم ومخاطبتهم والتحدث معهم، سيشهد بكاءهم على الأحياء. فنحن نبكي وراء الشهداء ونرقّ على أيتامهم الذين تركوهم، بينما هم يَبْكُونُ على الوضع الأليم لأهل الدنيا، وعلى الدنيا التي أصبحت صنماً يُعبد من دون الله. وعلى الحياة التي غدت تمضي في رخاء وراحة ملفعة بالذلّ والبؤس، وعلى القعود عن الجهاد في سبيل الله، وعلى التكاسل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى الليالي التي تمضي سوداء مظلمة، وعلى السجاجيد التي لم تبتل بالدموع الغزيرة. وعلى عدم الانكسار لوضع المسلمين الأليم. وفي الحقيقة أن الشهداء في عيش رغيد وحياة ملؤها السعادة والطمأنينة، أليسوا في كل لحظة مع الله ﷻ؟ أليست حياتنا المعاشة كالجحيم التي نعيشها قياساً بحياتهم الخالدة؟. إن هذه الحياة التي أصبحت وسيلة لدخول الشيطان فيها لإبعادنا عن الله جلّ وعلا، هي حياة يرثي لها، وصعب تحملها، ولكن كم هو مؤلم أننا نعيشها بلهفة ومحبة ورغبة!

علاقة
الجهاد - المؤمن - الكون

الفصل الثالث

١. الجهاد واجب كل مؤمن

لاشك أن لكل فرد من الأفراد وظيفة تناط به في هذه الحياة الدنيا التي لا قرار فيها لشيء. فالأموال تنفذ والعمارات تخرب، ولا ينفع الإنسان إلا ما أرسله من ههنا إلى هناك. فما عليه إلا العمل الدائب والسعي الجاد ليتمكن من إرسال شيء إلى هناك قبل الرحيل إليه.

ومما ينبغي أن يُعلم قطعاً: أن كتاب أعمال الإنسان يغلق بموته، وسينفرد بما عمل، ولا يستثنى من هذا إلا من دافع عن دينه وأمته وعرضه وشرفه وعن كل ما يجب أن يحافظ عليه. فالذين نذروا أنفسهم لله وبدلوا ما يملكون في سبيله وفي سبيل نشر الإسلام العظيم، لا يغلق كتاب حسناتهم قطعاً، وقد ورد في حديث شريف ما يوضح هذا بجلاء:

(كل ميت يُختتم على عمله إلا الذي مات مُرابطاً في سبيل الله فإنه يُنمى له إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر).^{٥٠} فإنه سنّ سنة حسنة وشقّ نهجاً وسبيلاً إلى الخيرات، فكل حسنة يعملها من يأتي بعده يُكتب مثلها في كتاب حسناته، فضلاً عن ذلك فهو آمن من فتنة القبر وعذابه، لأنه لم يمّت موتاً حقاً حتى يرى عذاب القبر، بل بدّل مكاناً بمكان فحسب، فما تركه من جليل الأعمال يعيش كل حين في قلوب الناس.

٥٠ الترمذي، فضائل الجهاد ٢. أبو داود، الجهاد ١٥.

فالذي يقول أن عمداً ﷺ والخلفاء الراشدين والصحاب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين قد ماتوا وانتهوا، فهو الميت حقاً، ذلك لأنهم قد سئوا سنناً حسنة عظيمة. وفتحوا سبلاً منيرة لا نخرج على شئ في طريقنا في الحياة إلا ونرى ما يخصهم من آثار جليلة. وكلما رأينا آثارهم سجدنا سجدة شكر لله قائلين: ليرفع الله ذكركم، ويرض عنكم أجمعين، فقد مهدتم لنا السبيل إلى الله تعالى ويسرتم لنا الطريق إليه فندرجها بأمان واطمئنان.

ولهذا تتضاعف حسناتهم وفضائلهم ومزاياهم وترتفع حتى تبلغ العرش الأعظم. فهؤلاء بلا شك آمنون من عذاب القبر، لأن هذا العذاب يخص الأموات. نعم، إن عذاب القبر لأموات الروح وأناسي الجسد الذين لم يصبغوا حياتهم بالدين الذي هو صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة. فهؤلاء لم يحتسبوا حياتهم للحقيقة الأحمدية، ولم يتخذوا القرآن دستور حياتهم. أما الذين نذروا حياتهم لهذه الحقائق وبذلوها في سبيل الله، فهم في منجاة من عذاب القبر. يقول سيد الكونين سيدنا محمد ﷺ في الجهاد:

(مَنْ رَاطَبَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَانَتْ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا).^{٥١}

فعليكم إذن أن تصوموا ألف يوم وتقيموا ألف ليلة كي تبلغوا ثواب المراتب ليلة واحدة في سبيل الله تجاه العدو الذي يريد الحلول في بلدكم وتخريب أمتكم. بل هذا أرضى لله وأكثر قبولاً عنده.

من المؤمنين من يوفي بمهمة الجهاد حق الوفاء فينال الفضائل التي ذكرناها

٥١ ابن ماجة، الجهاد، ٧.

آناً. ومنهم من يعجز عن القيام الفعلي بالجهاد ولكن ينال جزاء عمله مثل أولئك فضلاً منه ﷺ. بمعنى أن من يعمل في سبيل الإيمان والقرآن - ولو حمل حجراً للبناء - لا يضيع عمله هباءً قط.

فمن يتبنى القضية التي يُشاورُ بشأنها و يعمل على إنجازها ويصح وسيلة في خدمتها بكافاً - كلٌ - حسب نياته ويثاب على عمله. فبدءاً من الكاتب الذي يجاهد بقلمه وحتى الناشر له. كلٌ يأخذ ثوابه كاملاً غير منقوص.

ولهذا ينبغي على كل مسلم أن يشترك في هذه المأدبة العظيمة بما منحه الله سبحانه من إمكانات وقابليات، ليغنم النتيجة الحاصلة من عمل الجميع.

يروى أبو هريرة رضي الله عنه في حديث المعراج:

(... فسار وسار معه جبريل عليهما السلام. قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان. فقال النبي ﷺ: يا جبريل، ما هذا! قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يُخلفه، وهو خير الرازقين)^{٥٢}.

بمعنى أن الرسول ﷺ لما ارتقى بالمعراج سماءً سماءً بعنوديته وعبديته إلى الله منسلخاً من عالم الناس مرتقياً إلى عالم الملكوت، فرأى مناظر شتى، واطلع على مشاهد كثيرة. فشهد في هذه الأثناء أن قوماً يزرعون في اليوم ويحصدون ما يزرعونه في اليوم نفسه. وما أن يحنوا الحاصل حتى تزرع البنور مرة أخرى وتثمر مرة أخرى. وعندها استفسر الرسول الكريم من جبريل: يا جبريل من هؤلاء؟...

٥٢ ابن كثير، التفسير ٣١/٥ المحقق

ومن هنا فالمؤمن إذ يضحى بحياته كلها وأذواقه وراحته وشبابه في سبيل الله عليه أن يعتقد أنها لا تذهب هباءً منثوراً ولا تفتنى فناءً قط بل ما إن يرحل إلى العالم الآخر، يرحل إليه مطمئن القلب حيث سيرى أنه لم يهدر مثقال ذرة من عمله قط. نعم، إن الله الحفيظ على كل شيء والرقيب على كل شيء سيحافظ على ما بذله المؤمن في سبيله. نعم، الله يحفظ عمل المؤمن ويجازيه خير الجزاء ما لو خرّ له ساجداً - إن كان السجود وارداً في الجنة - لا يرفع منه رأسه إلى الأبد لا يوفي شكره الله على الطافة العظيمة وإنعامه السابغة عليه. واعتقد أن اللذة الروحية الحاصلة من هذه السجدة لا تتخلف عن لذات الجنة الأخرى.

والرسول ﷺ يبيّن في حديث شريف الشركة في ثمرات الجهاد فيقول:
(مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَخْتِـرُ فَقَدْ غَزَا)^{٥٣}.

نعم، إن من لا يقدر على الإشتراك في الجهاد بالذات ولكن يستطيع أن يعاون من هم في الجهاد ويحتضن بمؤسساته المجاهدين، ويسيرون معهم في الجهاد فعلاً. فالذين عاونوا مجاهدي بدر وجهّزوا مجاهدي أحد وبذلوا أموالهم لمجاهدي تبوك سيسيرون معاً إلى الرب الجليل ويمشرون معاً. ذلك لأنهم استجابوا لأمر الله ورسوله في الجهاد وإن لم يشتركوا مع المجاهدين فعلاً لأعذارهم، إلا أنهم لم يتخلفوا عن الجهاد.

٥٣ البخاري، الجهاد، ٣٨. الترمذي، فضائل الجهاد، ٦. النسائي، الجهاد، ٤٤

نعم إن الذين خرجوا للجهاد في تبوك سيجدون أزواجهم وأولادهم وشبيهم وشبابهم معهم يوم القيامة. إذ الصبيان أتوا بسكاكينهم وحراهم ووضعوها أمام الرسول الكريم ﷺ وأتت العرائس بغيراطهن، وحتى الشيوخ أتوا بما لديهم من عصي.. فبذل كلٌ بما لديه لله ووضعه أمام الرسول ﷺ قائلين لتكن لنا مشاركة في الجهاد.^{٥٤} فهؤلاء جميعاً سيعاملون معاملة من جاهد جهاداً فعلياً. يذكر ذلك الرسول الحبيب ﷺ في حديث آخر:

((إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِبًا إِلَّا كَأَنَّهُمْ مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ))^{٥٥} وفي رواية أخرى ((لَا تشارككم في الأجر)).

بمعنى أن الأعداء كالشيخوخة والعجز والفقر والأنوثة أو ما شابه ، مما يقيد المرء عن الاشتراك في الجهاد الفعلي، لا تنقص من ثواب المجاهدين، حيث سيقبلهم الله الجليل كالمجاهدين فعلاً ويشيهم على عملهم حسب نياتهم. وهذا ما نفهمه من بشارة الرسول الكريم ﷺ في الحديث السابق. ونعدّ إيماننا هذا - كما هو الوارد في الحديث الشريف - من قبيل الدعاء بحقنا. ولا سيما في الوقت الحاضر الذي ترك فيه الجهاد كلياً. فنحن نعتقد يقيناً أن من اشترك جزئياً أو كلياً في هذا العمل - العمل للإيمان والقرآن - سينال ثواب الجهاد كاملاً، ونسأل الرب الكريم ألا يخيبنا في يقيننا هذا.

٥٤ الراقي، المغازي، ٩٩١/٣-٩٩٢ يوسف الكاندلوي، حياة الصحابة ٤٢١/١، ٤٢٢
٥٥ مسلم، الإمارة، ١٥٩. البخاري، المغازي، ٨١.

٢. نستعد للجهاد كل آن وحين

على المؤمنين أن يكونوا على استعداد كامل لما قد يداهمهم من أخطار حقيقية في قابل الزمان، ولا يتخروا شيئاً من صحتهم وشبابهم إلا وبدلوه في هذا السبيل، وعليهم أن ينسّقوا حياتهم وفق ذلك لكلا يقعوا في ورطة وحرَج أمام ما يستجد من أحداث فيقلقوا ويضطربوا ويحاروا تجاهها.

فالقرآن الكريم يحثنا إلى هذا بالآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠) والرسول الكريم ﷺ يأمرنا: (مَنْ احْتَبَسَ فَرَساً فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيْمَاناً بِاللَّهِ وَكَصْدِيقاً يُوعَدِيهِ فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّةَ وَرَوْتَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^{٥٦}.

فالحديث الشريف يحث على الاستعداد للجهاد بهذا الأسلوب الملائم، وكذلك عندما سأل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الرسول ﷺ عن الخيل قال: (الْخَيْلُ لِثَلَاثَةِ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا،

٥٦ البخاري، الجهاد، ٤٥٠، المسند ٣/٣٧٤

فَاسْتَنْتَ شَرْقاً أَوْ شَرْقَيْنِ، كَانَتْ أَرْوَاهَا وَأَثَارُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَلْهَا مَرَّتْ
بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي
هِيَ عَلَيْهِ وَزَرٌّ فَهُوَ رَجُلٌ رَبَطَهَا فَخَرّاً وَرِيَاءً وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِيهِ وَزَرٌّ
عَلَى ذَلِكَ.^{٥٧}

وقد ذكر الخيل في الحديث لأنها أسرع واسطة للنقل والحرب لعصر
معين. أما في الوقت الحاضر فقد تغير الزمان، والناس يستعملون السيارة
وغيرها من وسائل النقل والحرب، لذا يمكن أن ينسحب الحكم الوارد للخيل
على وسائل النقل المستعملة في وقتنا الحاضر.

نعم، قد تكون سيارة وزراً على صاحبها، حيث يستعملها في السفاهة
والآثام، وربما وسيلة للعداء للإسلام. وسيارة تكون سترّاً لصاحبها حيث
يستعملها في أمور مشروعة، وربما واسطة لرزقه ولا ينسى حق الله فيه. وسيارة
أخرى تُذرت في سبيل الله. يتنقل بها صاحبها من قرية إلى أخرى ويصطحب
فيها المرشدين والوعاظ إلى مواضع المحتاجين إليهم. فكل قطرة وقود تحرقها هذه
السيارة، وكل قرش يصرف عليها، وحتى الغازات العادية الخارجة منها،
والأصوات الصادرة منها، والطبن الذي التصق بعجلاتها.. كل ذلك تُكتب
حسنات في سجل حسنات صاحبها، وكأن حركة العجلات تولد الحسنات
وتسجلها كتروس المعمل. فكل ما يدخل فيها وما يخرج منها وحتى الآثار التي
ترتكها على الأرض تؤدي وظيفة قلم يكتب الحسنات باستمرار.

^{٥٧} البخاري، الجهاد، ٤٨. الترمذي، فضائل الجهاد، ١٠

فمن:ن نقدر فائق التقدير ذلك المحظوظ الذي نذر سيارته لخدمة الإيمان
والقرآن وحملها أعباء دعوة الحق، ولبيان حاله يقول: إن الغاية من شرائي هذه
السيارة هي نشر الحقائق. وغني عن التعريف أن هذا تهيةة وتحضير ومقدمة
للأعمال الجليلة التي تتحقق بإذنه تعالى في المستقبل.

٣. الجهاد يكتمل به المؤمن كل آن

إن الجهاد - المادي والمعنوي - أعظم دافع ودستور للحياة الإسلامية، فإذا خبا في المؤمن روح الجهاد يذبل وينطفئ أيضاً عشق الإيمان والإسلام رويداً رويداً، فتحيطه شرارات الفتن من كل جانب، حتى نمسه السنة لهيبها. والفتن تولّد فتناً أخرى، فتغدو بيوت هؤلاء ومعالهم وأزقتهم وأسواقهم في النهاية أوكار لعنة وفساد. حتى تخور قواهم أمام الأحداث الرهيبة فلا ينبض لهم عرق تجاه حادث أو فعل.

و كذلك نزول من القلوب بركة الوحي بنسبة زوال الرغبة في الجهاد والشوق إليه، وينمحي الشوق والعشق لإدراك المقاصد الإلهية، حيث القلوب باتت بعيدة وغريبة عن أن تكون مهبط الإلهام الرباني، فيحرمون من الأسرار الإلهية. فنهار هؤلاء مظلم كليهم، ذلك لأن الله ﷻ إنما يتفضل بالتجليات والفيوضات على قلوب الذين يتحملون أعباء الجهاد ويتعهدون إعلاء كلمة الله بما يوافق عظمته سبحانه، فلا يتحول المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء إلى أنقاض وخرائب.

نعم، إن تكامل الفرد والأسرة والمجتمع، بأكمله مرهون بالجهود التي تبذل في سبيل إعلاء كلمة الله في الحياة والمجتمع. فإن قدّم المؤمنون شيئاً من الهمة والجهد بتجواهرهم في القرى والأرياف، قرية تلو الأخرى، قصبة إثر قصبة،

يبلّغون الناس دعوة الله الحقّة، فهذا يعني أن الله سيحيي ذلك المجتمع من نواحيه كافة، أما إن كان المجتمع محروماً من هذه الروح وهذا العشق، فانه يتهاوى على رؤوس أفرادهِ. إن اليوم، أو غداً، أو بعد غد. وإن غداً لناظره قريب. والتاريخ يشهد كم من أَعْزَاء أَصْحُوا أَذْلَاء، وكم من أغنياء وأثرياء غدوا فقراء معدمين متى ما حرموا الجهاد. فالذين كانوا يتوجّون الملوك أصبحوا أذلاء بعد أن دارت الأيام، وصاروا يتوسلون بتقبيل الأقدام. ونحن نتلو اليوم عليهم الآية الكريمة: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * ﴾ (الدخان: ٢٥-٢٧). وربما يأتي يوم - حفظنا الله منه - يتلون علينا الآية الكريمة نفسها

نعم، لقد قرأت (الفاشحة) على أرواح الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين.

فإن كنا لا نريد أن تتحول الأناضول، آخر معقل الإسلام تجاه غزو الغرب، إلى مقبرة تقرأ فيها (الفاشحة) علينا الابتعاد عن أحوال الموتى وأوضاع المقابر، بمعنى أن نكون أحياء حياة تليق بالإنسان.

فنحن نعظمُ بنسبة تعظيمنا لدين الله، فنكتسب قدراً وحالاً لدى الله بقدر عظمة اسمه الجليل في قلوبنا، أما إذا تهاوينا بالأمر وأهملنا واجبنا في التبليغ والدعوة، وتركنا مهمتنا فنصغرُ بقدر ذلك أمام الله، وتُدْمَرُ ونزول.

فإن كنتم تريدون أن تكونوا أحياء أَعْزَاء، عليكم أن تضعوا إسم الله في سويداء قلوبكم، وتجعلوه سبحانه غاية حياتكم، وتزيلوا كل ما ليس له صلة

بأن الله من حياتكم، بل حتى من أحلامكم. قولوا معاً: إن القبر الذي هو رواق الآخرة خير لنا من حياة لا أتمكن أن أحب الله فيها ولا أستطيع من تبليغ دعوته سبحانه، ولا أقدر على إنفاذ أوامره في الحياة. فالموت خير لي من أن أحمل قلباً لا يفتح لتجلياته جل وعلا لتغسل أدرانته.. اسعوا لبعث هذا الشعور السامي وهذه الفكرة الطيبة في قلوب الأمة جميعاً. وحاولوا أن يقف المجتمع على قدميه بعد أن انهارت فيه كثير من المقومات. وذلك لينجيكم ربكم من أن تكونوا كالمقطعان الضالة.

المؤمن يعرف ما ينبغي أن يفضل وكيف يفضل، وفق الموازنة المطلوبة بين الدنيا والآخرة ويستشعر في وجدانه بأهمية الآخرة وإثارتها على أمور الدنيا الفانية، فهو دائماً على استعداد لتفضيل أمر الله على أمور الدنيا. وبحسب هذه المفاضلة لا يُضحى بالأمور والأشياء الباقية السرمدية لأجل أمور زائلة تافهة، بل يهتم بالدنيا بقدر مكوثه فيها وبالآخرة بقدر بقائه فيها. فلا يقع في إفراط اليهود ولا في تفريط النصارى.

والمؤمن يعدّ التذلل تجاه أمور دنيوية هو المرتبة الأولى للتعرض للذل والخزي في العقبي. لأن الذين جعلوا الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم يحرمون منها فضلاً عن تضييعهم للآخرة. فالذي يهاب الموت يفقد لذة الحياة كذلك والذي يفقد صوابه تجاه العدو في جبهة القتال ويفرّ من الزحف خوفاً على حياته وعشقا لها أو يعتريه الاضطراب والقلق على حياته ومعيشته فيجد الحل في الفرار من ساحة الجهاد، يحرم من الحياة عينها والعيش نفسه. وحتى الذي

ينزوي في صومعته لئلا تفلت منه الدنيا وما فيها، متخلفاً عن الجهاد المقدس، يحرم من تلك الصومعة أيضاً. فساقطو المهمة سيفقدون يوماً كل ما لديهم، وينقلبون رأساً على عقب. بينما ذوو المهمة العالية ممن يهدفون إعمار الكون بنجومه وكواكبه يستصغرون الدنيا ويأبون أن يروا العالم يقوده حاكمان إثنان بل يجدون في أنفسهم الأحقية لها فيعيشون برؤى حاكمية العالم طوال عمرهم.

نعم، إن الذين فضّلوا الموت على الحياة، قد كشفوا عن سر الخلود، ووجدوا الطريق إلى العيش الأبدي. وأما الذين افتتنوا بسحر الدنيا وجمالها فيتشبثون بها بما لديهم من طاقة تاركين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مهملين ما يجب عليهم في هذا الصدد.. هؤلاء يدفعون بالأمة إلى التهلكة فضلاً عن أنفسهم. ويتركون الجيل المقبل ضائعاً تائهاً دون صاحب أو حام.

فجهاد المؤمن يتوقف على تلافي هذه العواقب الوخيمة.. نعم إن الشوارع والأزقة تنور بجهاد المؤمن، ولا يندفع الفوضى والإرهاب الذي أغرق الدنيا في بحر من الدماء إلاّ بجهاد المؤمن. والسلام الدائم للإنسانية قاطبة وسعادتها إنما تستقر على الأرض بجهاد المؤمن.

فالؤمن هو هذا الإنسان الذي يسير نحو هذه الغاية السامية. ولربما يبلغ الغاية أو لا يبلغها، ولكن في كلا الحالتين ستحتضنه الرحمة الإلهية وسيحشر مع السعداء الأبرار الذين قضوا نحبهم في سبيل هذه الدعوة، وتمسكوا بتلابيب الرحمة الواسعة.

ومما لا ينبغي أن ننساه هو هذه الحقيقة: أنه بحسب المؤمن أن يسلك طريق الحق ويثبت عليه وليس من الضرورة بلوغ النتيجة دائماً. فبلوغ كل إنسان إلى الهدف غير وارد. وإنما على كل واحد أن يتحرك ويسكن ويعمل ويسعى ويجدّ لبلوغ الهدف. أما حصول رضى الله في هذه السبيل فقد لا يتيسر إلا لمن وفقه الله.

نعم، إن ما كان يخفق به قلب الغازي عثمان ويضطرب له ويقلق عليه لسنين طويلة قد تحقق بيد أحفاده. فكانت كل خطوة خطاها سلطان إثر سلطان عظيمة بقدر النتيجة الحاصلة منها. ولها نفس القيمة والأهمية عند الله. فأعمالهم كلها جهاد، والذين اشتركوا معهم جميعاً في هذا الجهاد يسجلون في سجل المجاهدين. نعم، إن كل من امتطى جواده وهياً فرسه وحمل قوسه وشدّ الرحال إلى ديار الكفر لتبليغ دعوة الإسلام يسجل في سجل المجاهدين. فلا فرق بينهم وبين الحاكم الذي قاتل في المعارك ولا فرق بينهم وبين من ضم البحرين العظيمين ضمن سلطنته وحاكميته فاصبح عنصر توازن في الأرض حتى سكّت النقود باسمه، ذلك لأن كلاً منهم كان يستهدف الحقيقة نفسها ويتحرك ويسعى لها.

نعم إن الدنيا التي سينشؤها فدائيو المحبة هي أساس السكينة ومنبع الطمأنينة ومركز السلام الذي سيعم الإنسانية قاطبة. فكل خطوة تُقدّم في هذه السبيل لإنشاء مثل هذه الدنيا خطوة مقدسة، وكل همة تدفع في هذه السبيل جليلة عظيمة مهما كانت صغيرة، فإن كان باستطاعتكم أن تخطو خطوة واحدة فاخطوها قبل أن تنقطع أنفاسكم.. تسابقوا في السير إلى الله تعالى مع الملائكة الكرام كي يعزّكم الرب الجليل ويرفعكم إليه تعالى، حتى إذا

ما توافاكم قبل إنجاز المسابقة، فقد فزتم.. نعم لا تضيع عنده حبة من خردل من الأعمال.

وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٠٠).

ولعل إيراد سبب نزول هذه الآية الكريمة يوضح المسألة أكثر:

كانت القلوب تتحرق شوقاً إلى الإيمان بالله. والناس بدأوا يردون إلى منبع الفيض الإلهي في المدينة المنورة زرافات ووحداناً، حيث ذابت الحواجز بين القلوب وأصبح الجميع يندون إلى الرسول الحبيب ﷺ في المدينة المنورة، حتى أصبح الأعداء السابقون أصدقاء وأولياء.. وكان منهم جندب بن ضمرة، الذي قال: عليّ أن اذهب إلى المدينة.. وانسلّ من بين الكفار متوجهاً إلى المدينة المنورة، فكان يستشعر بنسائم المدينة من بعيد.. ولكن أصابه مرض شديد أقعده عن الذهاب والهجرة، فلم يستطع أن يبلغ غايته.. ولما أحس أنه سيموت مدّ يديه إلى السماء بقلب ملتهع. وقال: يارب إقبل احداها يدك والأخرى يد الرسول الكريم ﷺ فأنا أبايعك، بمثل ما بايعك به رسول الله ﷺ.. وتوفى قبل وصوله المدينة المنورة. ونقل الخبر إلى رسول الله ﷺ. وقال بعض الصحابة أن جندب لا يعدّ مهاجراً ولا يفوز بثواب المهاجرين^{٥٨}.

٥٨ ابن الأثير، أسد الغابة، ١/٤١٢-٤١٣، السيوطي، الدر المنثور ٢/٦٥٠-٦٥٤

فنزلت الآية الكريمة، مبشرة بأن جندب من المهاجرين. وان من يترك بيته بنية الهجرة إلى الله ويموت في الطريق ينل ثواب المهاجر.

نعم، إن سالك طريق الحق، هو على الحق. فالذي يوصل إلى الحق، حق مثله. نعم، قد لا يتمكن كل أحد أن يبلغ الكعبة والطواف حولها واستلام الحجر الأسود وتقيلها ثم التطهر من الذنوب على عرفة. ولكن من كان يحمل عشقاً لهذا الطريق والسلوك فيه، وكان همه وفكره يدور حول هذا، فلا يدعه الرب الجليل ﷺ وهو الرحمن الرحيم ولا يترك ذلك القلب الواله العاشق محروماً من الثواب.

انه لا فرق بين الصغير والكبير من الأعمال التي تؤدى في سبيل الله. ألا فليعلم أولئك الذين يقولون: إنني لا أتمكن من أن أجاهد بمثل ما تعرفون الجهاد ولا أستطيع أن أبلغ تلك المسائل، ولا أتمكن أن أتعهد بالدخول تحت طائلة أموال أنفقتها في سبيل الله... وأمثالها من المعاذير.. فليعلم هؤلاء أن من يشترك في هذه المأدبة الربانية ولو بملعقة صغيرة ينل - من دون أن يشعر - ثواب من اشترك فيها ملء الوديان والبحار.

نعم لا عبرة بصغير العمل وكبيره ما دام في سبيل الله، فربّ عمل بقدر ذرة في سبيل الله يرجح على الأطنان من الأعمال، وربّ خطوة واحدة في تلك السبيل تجلب من البركات والخيرات ما يعمر بها الإنسان آخرته، ولهذا عليكم بخلوص النية في العمل لله. وابدلوا ما لديكم وما تستطيعونه من عمل، ولا يساورنكم شئ من الظن فإن عناية الله ورعايته معكم.

٤. الربانيون ممثلو الحاكمية

إن الجهاد الذي بدأ منذ آدم عليه السلام واستمر بالأنبياء الآخرين، قد أدامه مئات من الربانيين المعروفين والمجهولين لدينا، في كل فترة من فترات التاريخ. والقرآن الكريم يعلمنا هذه الحقيقة بالآية الكريمة الآتية:

﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَوَتَّ أَعْدَاؤُنَا وَالنَّصُرَتَا عَلَيَّ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَأَنكَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٨).

فالآية الكريمة تذكر (الربانيين) الذين يستحقرون الحياة ولذائدها كافة، وكل ما يعود إليها، وهم لا يسكنون ليل نهار في ابتغاء مرضاة ربهم ويبدلون كل غال ونفيس في سبيله، فقد نذروا أنفسهم لله، ينشدون الحق دوماً، ولسانهم رطب بذكره الجليل. فهؤلاء يرتبطون بالله ربهم بأوثق رابطة، وجهادهم نابع من صميم قلوبهم.. نعم انه جهاد الربانيين الذين لا يهنون لما أصابهم في سبيل الله ولا يستكينون ولا يضعفون. فلا يؤثر فيهم شيء حتى لو انشقت السماء عليهم وانشقت الأرض وابتلعتهم ودارت رحى المصائب على رؤوسهم. فهؤلاء يسرون في سبيلهم لا يبالون بالبلايا لا يفت جمل في

عضدهم وعزمهم وإقدامهم في طريق الحق الذي آمنوا به. فهم أبطال الصبر ورجال الثبات. فالصبر مغروز في فطرتهم بل هو اشتهاً وشوق فيهم. فهذا الشوق والشهية من أهم الوسائل لجلب رحمة الله عليهم. ذلك لأن الله يحب الصابرين.

ومن جهة أخرى تراهم يتسابقون مع الملائكة في الطهر والعفة، متخذين طور الأنبياء قدوة في تجنبهم الآثام والمعاصي. فهم على علم من أن الإثم وقساوة القلب تعرّضان الإنسان إلى الخور وقلة العزم وضعف الثبات. لذا يستمرون في حياتهم وهم يحملون عزماً وإقداماً وثباتاً ويلتجئون إلى ربهم كل حين راجين غفرانه لذنوبهم وإسرافهم في أمرهم.

نعم إن الإثم مانع وعائق لنزول الرحمة الإلهية بمعناها الكامل. لذا فلا بد من التوبة من الإثم فوراً، ولعل تقديم التوبة والمغفرة على النصر في الآية الكريمة هو من هذا الأمر: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿آل عمران: ١٤٧-١٤٨﴾. إن القرآن الكريم يبين لنا طريقاً سوياً لجلب محبة الله ورضاه، وهو يرشدنا: إن كنتم تريدون ذلك، فهذا هو الطريق.. كونوا من الربانيين. ومن هنا كان كل نبي من الأنبياء يربي في أمته الربانيين الذين يمثلون دعوته ويسلم راية الجهاد لأيديهم. فلكل نبي ربانيون من هؤلاء قلّوا أم كثروا.

فلقد مضت هذه السنة الإلهية هكذا حتى بلغت رسولنا الكريم ﷺ.

والذين أنشأهم الرسول الكريم ﷺ من الصحب الكرام كلهم ربانيون. فكل صحابي رمز للجهاد والبطولة والثبات. وكل صحابي كأنه على صورة حوارى منذ الخلق، فهو أزهد الزهاد وأعبد العباد ليلاً، وهو في النهار بطل يلقي الرعب حتى في قلوب الأسود الضارية. فأقوى الجيوش الجرارة ينهزم أمامهم ويهربون كالأطفال الصغار. ذلك لأنهم عشاق الموت، في حين أن أعداءهم يهربون خوفاً من الموت وهلعاً منه.

واليكم أمثلة من خير القرون:

١. أنس بن النضر:

لم يشترك في بدر، وهو الذي التحق مع أهله أجمعين بالنور، وحظي بالنور وأصبح نوراً منوراً، وولج طريق النور لنشر نور الحقيقة... ولكنه مع هذا لم يقدر له الاشتراك في بدر لأسباب خارجة عن طوقه. فشق ذلك عليه ولهذا كان دائماً يتألم ويتحرق، ولا سيما عندما عاد أسود بدر من الغزوة فأخذ يضرب يده على ركبته متألماً وقال: (أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع)^{٥٩}.

وبعد مضي سنة واحدة، أتت قريش - انتقاماً لمعركة بدر - بقوة تفوق أضعاف أضعاف قوة المسلمين، وبلغت أبواب المدينة المنورة، فاستقروا على سفح جبل أحد - الذي يبعد عن المدينة المنورة قرياً من خمس كيلومترات - فأنس بن النضر الذي لم يقدر له أن يشترك في بدر، هو الآن في معركة أحد

٥٩ البخاري، تفسير سورة الأحزاب ٦ / ١٤٦. مسلم، الإمامة، ١٤٨

بكل طاقاته وهمته، فلما حمي الوطيس كان أنس يضرب أعناق كل من يقابله من الكفار يمناً ويسرة، ويغير على الموت نفسه في كل موضع في سبيل إعلاء كلمة الله، ولكن الموت الذي سيبتلع هذا التواق إليه لا يترأى في الأفق بعد.

أوشكت الحرب أن تضع أوزارها، وأنس محزون متألم من عدم فوزه بالشهادة... وفي هذه الأثناء إذا بخالد بن الوليد يغير فجأة على المسلمين، فيقع الاضطراب في صف المسلمين، ويتشتتون حتى أشيع أن الرسول الكريم ﷺ قد قتل، مما سبب شدة الاضطراب في صف المسلمين، إلا أن أنس هو الوحيد من بين الصف لم يحرك قدماً إلى الخلف قط. إذ كان يلقي بنفسه على العدو، وهو يقول إن كان حقاً قد مات رسول الله ﷺ فلم تعيشون أنتم... أنس بن النضر العاشق للموت، التواق لشراب الشهادة.. رفع يديه قائلاً: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني الكفار صبيان الظلام - الذين لا يعرفون الله ورسوله.^{٦٠}

نعم إن أنس بن النضر يبرئ ذمته ويبعد نفسه عما يعمل به هؤلاء الكفار ويلتجئ إلى ربه تعالى. ثم ألقى نظرة إلى صفوف المسلمين المضطربة فاغرورقت عيناه، كان المنظر مؤلماً جداً بالنسبة إليه. صحيح أن العدو لم ينل منهم شيئاً ولكن ما شاهده من تفرق الصف وتشتته كأنه سهم مسموم أصاب صدره. فقال: اللهم أعذر إليك مما صنع هؤلاء.^{٦١} ثم اندفع على صفوف العدو ولم يعقب، فلم يكن يدور في خلدته لحظة الخوف وليس في قاموسه

٦٠ انظر إس كثير، التفسير ٦ / ٣٩٤ - باختصار - من رواية مسلم والترمذي والنسائي
٦١ المصدر السابق

كلمة الخوف، إذ كان يجب الموت أكثر من الحياة. فدارت رحى الحرب مرة أخرى. ورغم كل ما جرى فالنتيجة كانت أيضاً لصالح المسلمين. إذ ترك العدو الساحة وولّى بعده وخدده. وما ترك غير الخسران والخذلان والضياع الكثير.. ويصح أن يطلق عليه الفرار بنفسه، إذ ما كان لهم أن يفكروا بالعودة مرة أخرى للحرب وقد تعقبهم الرسول ﷺ مع ثلة من المسلمين.

بلغ عدد شهداء أحد ما يقرب من سبعين شهيداً.. وكان من بينهم أنس بن النضر فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم حتى قالت أخته: فما عرفت أخي إلا بينانه^{٦٢}. ونال أخيراً مرتبة الشهادة. والقرآن الكريم يذكره ومن معه في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٣). وكان أنس بن النضر من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه^{٦٣}.

ب. البراء بن مالك:

لم يولّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه البراء بن مالك قيادة الجيش على الرغم من بطولاته الفائقة وبلائه الحسن في المعارك. ولما سئل عن السبب: قال: شجاعته.

نعم انه كان شجاعاً وجريئاً إلى درجة قد يورد الجيش المهالك بإقدامه،

٦٢ المصدر السابق.

٦٣ البخاري، الجهاد، ١٢. ابن الأثير، أسد الغابة، ١٨٢/١-١٨٣.

فسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يوله الجيش مع حبه الشديد له، خشية أن تؤدي جسارته الفائقة إلى عدم الأخذ بالحدس.

هكذا البراء لا يعرف الخوف. وقد شهد جميع الغزوات فضرب أعناق الكفار، فكان يتعقب الموت في كل مشهد، فإن لم يجده يتألم ويحزن ويرجع مهموماً من ميدان الحرب!

ولقد أصبح قاب قوسين من الشهادة في اليمامة، إذ لما لم تفتح أبواب القلعة، تسلق الأبراج ورمى بنفسه منها إلى داخل القلعة، والعدو يطره بالنبال، فجرح جروحاً بالغة.. ولكن لم ينل في اليمامة أيضاً ما أراد.

انه صحابي مستجاب الدعاء. وقد وصفه الرسول ﷺ بين جمع من الصحابة الكرام رضي الله عنهم (كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَأُكُوفَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأُكُوفَهُ، مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ)^{٦٤}.

فكان الصحابة الكرام إذا تعسر عليهم أمر لجأوا إلى البراء بن مالك للدعاء. وحدث هذا كذلك في الأهواز، المعركة التي وقعت بين المسلمين والفرس. إذ لما حدث التشتت في صفوف المسلمين كان الناس يرقبون البراء وينتظرون منه الدعاء للنصر، فرفع يديه قائلاً: اللهم اهزم العدو وانصرنا عليهم وأبلغني نبئك. فردد ألوف المسلمين آنذاك: آمين آمين لهذا الدعاء. فنظر نظرة وداع لأخيه في الله أنس بعيون تبرق كالبرق الخاطف لشدة فرحه وبهيجته، فرمى الدرع ودخل صفوف العدو بسيفه المسلول، فهزم الله العدو

٦٤ الترمذي، المساقب ٥٤. ابن ماجه، الزهد، ٤

وبدأوا بالفرار ونصر المسلمون عليهم. ولما عم الفرح المسلمون كان في أرض
المعركة أسد هصور مخرج بالجروح يتملى المنظر الذي حدث بابتسامة رقيقة
على شفتيه.. إنه آخر منظر الوداع من الدنيا.. كان هذا الأسد الجريح البراء
بن مالك ينتظر استجابة الشطر الآخر من دعائه، بلوغه الرسول ﷺ.. وبعد
قليل التقى الرسول ﷺ الذي أحبه أكثر من نفسه.

٥. الجهاد وسيلة لحاكمية الأرض

ان في يد المؤمن كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويهديه إلى سبيل الرشاد، فهو منبع عزّه وسؤدده. وأمامه القدوة الحسنة للبشرية جمعاء وهو سيد المرسلين ﷺ. فهو بهذا الكتاب المبين وبهذا الرسول الكريم، ذو حظ عظيم أكثر من أي أحد كان على الأرض قاطبة. ولهذا فهو المرشح الوحيد ليحكم الأرض كلها.

والقرآن الكريم يعلم المؤمن هذا المفهوم، والله ﷻ ينتظر منه هذه النتيجة. فالمؤمن هو الذي يردد دائماً: الله ربي، ومحمد نبيي والقرآن كتابي والجهاد في سبيل الله أسمى أمانتي؛ لذا استقر في قرارة نفسه هذا المفهوم: إنني لابد وأن أجعل من أمة الإسلام عنصر توازن بين أمم الأرض جميعاً. فإن لم يؤخذ كلامي أساساً بين القرارات التي تُتخذ بين طبقات البشر، تُرتكب إذاً مظالم شنيعة، ويُذلّ الأعزاء، ويُعزّز الأذلاء.. ولهذا فلا بد ان يكون القرار والحكم صادراً مني، وأكون أنا عنصر الموازنة. وعلى الدول ان تحدد في اجتماعاتها إلى إصبعي أنا حيثما أشير، وأن يُقدّم كلامي على الكلمات التي تطلق هنا وهناك. ولا يُتخذ قرار إلا بعد أخذ رأيي في كل مسألة...

فإذا ما بلغ المؤمن هذا الشعور والمفهوم فلا تستغل أية قوة استعمارية المسلمين ، ولا يؤخذ ضدهم قرار الحصار. وهذا ما يريده ﷻ من المؤمن وهو

القاتل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

فالذكر يعني: النصيحة، أما هنا فيأتي بمعنى التوراة، أو اللوح المحفوظ في
معنى أشمل. وعلى هذا المعنى يمكن أن توضح الآية الكريمة كالاتي: إن الله
سبحانه بعد ما كتب في اللوح المحفوظ ما كتب، كتب في الكتب المرسلة إلى
الأنبياء مستنسخات من اللوح المحفوظ وهي: إن عباد الله الصالحين يرثون
الأرض، أي العباد الصالحون هم الوارثون الحقيقيون الدائمون في الأرض. أما
حاكمية الآخرين للأرض فهي عابرة خاطفة؛ إذ الحاكمية الدائمة على الأرض
بالتجدد المستمر، إنما هي حاكمية العباد الصالحين، وما يتشكل منهم من أمم
صالحة ومجتمعات صالحة. ولقد تقرر هذا قانوناً في اللوح المحفوظ، وسجل في
الزبور نقلاً منه. نعم، إن الزبور غير الحرف الذي أرسل إلى سيدنا داود عليه
السلام فيه هذا القانون .

نعم، ربما تظهر نظم - مما لا يرضى به الله - في الشرق والغرب، ويظهر
فراعة وتمرردون في كل مكان ولكن لفترة معينة ولمدة عابرة. فهذا لا يخالف
القانون المكتوب في اللوح المحفوظ وفي الزبور، والذي أخبر عنه القرآن الكريم.
لأن الميراث المذكور هو الميراث الدائم والحاكمية المستمرة لمدة طويلة. أما
ظهور حاكميات غير الصالحين مهلة قصيرة، فهو مبني على حكمة إلهية وهي
إيقاظ المسلمين وتذكيرهم ليبادروا إلى الاتفاق فيما بينهم. وهذا قانون إلهي لا
يقدر على تبديله أحد قط.

فدور الأخلاق الفاضلة في عصرهم أو من لهم نصيب وافر منها هم الذين يكونون حكاماً في الأرض. وجدير بالملاحظة أن المقصود بالأخلاق الفاضلة لا يعني التردد إلى المسجد أو ما شابه ذلك فحسب بل هو الاتصاف بأخلاق النبي ﷺ في كافة مرافق الحياة، وبهذه الأخلاق يدرك الإنسان معنى الأشياء والحوادث وعلاقة الإنسان بالكائنات، وفيها أيضاً المحافظة على التوازن التام بين سبر غور الأنفس والتفكير في سعة الآفاق.. وبمعنى أوسع من قدر على إدراك الخلود فهو الذي حقق الصلاح بمعناه الحقيقي.

ولا يمكن أن يحقق هذا المعنى الواسع للحاكمية، الذين يثيرون الإرهاب والفوضى في أنحاء العالم ويرتكبون الجرائم تلو الجرائم ويستغفلون الناس - ولاسيما الشباب - بمشاكل سياسية، ويختلقون شعارات سياسية لجذب الرأي العام، ويعتدون بعقولهم تاركيين الشورى فيما بينهم.. هؤلاء لا يمكنهم قطعاً أن يؤسسوا هذه الحاكمية - بمعناها الحقيقي - وسيبقىون من غفلتهم يوماً من الأيام عند شروق شمس الإسلام، وعندها يندمون، حيث يدركون تحبطهم في ظلمات دامسة، فيعترفون بخطيئتهم.

نعم، إن الإنسان الذي خلق مكرماً سيجد الطريق السوي يوماً ما، إذ بخلافه يكون هذا القانون خطأ - والعياذ بالله - ومن المعلوم أن القانون لا يتبدل إذ: «لَا تُبْدِلُ لِيَخْلُقِ اللَّهُ» (الروم: ٣٠) إلا أنه سبحانه له قانون آخر وهو «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد: ١١) فالله سبحانه لا يذل أمة عزيزة كانت تاجاً على الرؤوس إلا إذا غيرت الأمة ما في داخلها.

فهذا القانون سار في المعنى الإيجابي والسلبي على السواء. لذا ينبغي الحفاظ على النفس، والتعمق فيها، والسعي لإدراكها، فمن كان يريد إحراز لقب الفاتح فليفتح قلعة النفس أولاً، ومن استعصى عليه فتح الداخل لا يمكن أن يفتح شيئاً في الخارج.

إن بطرس الأكبر المعروف بجنونه، رسم للروس خطة مثالية، كانت خطته هذه موضع اهتمامهم دائماً، ويسكن أن نلخص قسماً منها بالآتي:

تجاوزوا حدود البلقان، أوقفوا توسع العثمانيين وقطعوا السيل عليهم، بثوا الفتنة والشقاق في صفوفهم. أنزلوا إلى البحار الساخنة.. استولوا على أفريقيا وممالك خليج البصرة.. لا تفسحوا المجال للأوروبيين أن يستغلوا العالم الإسلامي ضدكم حتى لو دخلتم معهم في مفاوضات..

تمضى الوصية هكذا عموماً، وأصبحت هذه الوصية إلى أيامنا الحاضرة غاية الروس وهدفهم، حتى في عهد الشيوعيين.

أما وصية الرسول الأعظم ﷺ للمؤمنين، فهي القيام بدعوة سامية ولغاية جليلة، تلك هي حاكمية الإسلام على الحياة كلها لضمان سيادة الدنيا والآخرة.

فامتثال هذه الأمانة المقدسة ونشرها في آفاق العالم اليوم دين في أعناقنا. فالمؤمن يعيش طوال حياته لأجل الغاية وسيطلق لبلوغها إلى البحر الساخن والبحر البارد، وسيشعر بقوته وحاكميته في كل بقعة من الأرض حتى لو كانت منجمدات سيبيريا ومجاهل أمريكا الجنوبية وصحارى أمريكا الشمالية.

ذلك لأن الله ﷻ لا يقبل منه أن يظل تحت سيطرة الكفار ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٤١)، إذ لو رضي بها يعني ذلك أنه فقد كل ما يملكه من إسلام وإيمان. وعند ذلك لا حق له في الحياة. إذ تصبح حياته كلها ذلاً ومهانة وبؤساً وشقاء. وستكون آخرته كذلك خزيًا وعاراً. ولهذا فإن أقدس شعور يمتلكه المؤمن ويستحوذ عليه هو حاكميته على الأرض كافة.

ولقد كنا رديحاً من الزمن حكام الأرض، فما تحقق بالأمس يمكن أن يتحقق غداً، وما علينا إلا بذل الجهد والسعي المتواصل وحصر الهمة به، وفي الأقل نثير همة أولي العزم من الرجال لوضع أهداف من أجل تحقيق الحاكمية.

آ. الحاكمية عند سيدنا موسى عليه السلام ومن قبله.

لقد أظهر سيدنا موسى عليه السلام هذا الهدف، لبني إسرائيل المؤمنين به وهو المسؤول عن تربيتهم وتنشأتهم، ولكن لم تكن تلك الفئة أهلاً لهذا الهدف إذ كانت أعينهم لا تبصر وآذانهم في صمم عن الحقائق التي نبعت من تلك الروح السامية، وهو الرسول المشحون بتجليات ربه الجليل في طور سيناء. والقرآن الكريم يبين موقفهم هذا بالآية الكريمة:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤)

إن هذا الكلام كان يخاطب به نبي كريم من أولي العزم من الرسل. وبنو

إسرائيل قد نبشأوا وترعرعوا بمفهوم الأرض الموعودة.. وقد حان الآن الوقت وسنحت لهم الفرصة فذو بذلوا شيئاً من الجهد والتضحية لبلغوا الهدف ولكنهم أخلدوا إلى الأرض، وآثروا الراحة والقعود. فلم تكن في نيتهم حتى التحرك من مواضعهم، ويتجاشون بذل أي جهد وجهاد. ولاشك أن لما يريدون نواله ثمن، ولكن عزّ عليهم دفع الثمن فما كانوا يتقربون منه هذا من قريب أو بعيد، ولهذا التجأ سيدنا موسى عليه السلام إلى ربه الجليل عاجزاً عن القيام بشئ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٥) وكأنه يقول: لقد ضجرت من هؤلاء وسمعت منهم فهم ذوو أرواح مينة فاقدة لروح الجهاد، يفضلون الدعة والراحة، خائرو العزيمة والغيرة. فادعو ملتجئاً إلى ربي: فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. فجعلهم الله يتيهون في صحراء التيه أربعين سنة ضائعين حائرين.

وهكذا تجري دعوة الرسل الذين يأتون من بعد موسى عليه السلام على نفس الشاكلة فنبى الله يوشع قد مضى على المنوال نفسه في الجهاد. وسيدنا داود عليه السلام كذلك.

نعم إن داود عليه السلام الذي كان جندياً في جيش طالوت قد تصدى لجالوت، وقتله في ميدان الحرب. ولكن مع هذه النتائج كلها نرى أن الكثيرين من جنود طالوت يتخلفون في الطريق، ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩) ولا يبقى غير قلة من المؤمنين الذين قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩) ينطلقون مندفعين

نحو الموت مستحقين الحياة الدنيا، فصدقهم الله في دعواهم ولم يكذبهم وألحق الهزيمة بجيش جالوت، فطردوا العمالة من مواضعهم، وتحققت أمنية بني إسرائيل، وهي الدخول إلى البيت المقدس.

ب. مفهوم الحاكمية على الأرض لدى الأمة المحمدية وجغرافيتها.

لنلق نظرة على سيرة المصطفى ﷺ نراه قد أشعل في روح الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين نور تلك الغاية المثلى - الحاكمية على الأرض - والتي أوردنا أمثلة منها. وتسبق تلك الغاية، إقامة الحياة الشخصية على الحياة الدينية دوماً، وقد حقق الله لهم هذا العزّ والظهور بفتح أبواب العالم أمامهم. وفي الحقيقة إن هذه الغاية والهدف هو معنى رسالة الرسول الكريم ﷺ، فلقد بعثه الله بالقرآن الكريم ليظهره على الدين كله. كما تبيّن الآية الكريمة :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (الفتح: ٢٨) فلقد وعده الله سبحانه بفتح مكة - ولا يخلف الله وعده - وفتحت مكة. ويفهم من الآية الكريمة أيضاً أن الله سبحانه سيفتح له العالم كله، متى ما حان وقته. لأن ذلك ضمن وعده الله له أيضاً، إذ لا يكون الدين على الأرض إلاّ الإسلام وحده. ذلك النظام الذي يسبغ على الإنسانية جمعاء السكينة والأمان والاستقرار.

نعم إن الله ﷻ قد أرسل رسوله بهذا الدين الذي تنور الأرض بنوره وتعمّر الخرائب بهدايته.

فمن يوقد نار هذا التوق والاضطرار والوجد والشوق في وجدانه، يجعل الجهاد أسمى غاياته في الحياة وأعظمها بل يجعل الموت في هذه السبيل نعمة عظمى. ولا جرم إن لم يكن الفناء فلا بقاء. فالطريق الموصل إلى البقاء يمر من الفناء، والنهار يعقب الليل والربيع يعقب الشتاء، ومن ليس لهم ليل ولا شتاء في حياتهم إذن لا ربيع لهم ولا نهار.

نحن في انتظار أن ينشق النهار في أمتنا.. نعم تقيمون الليالي الطوال وتقتحمون المصاعب والعسير من الأمور، وتعبرون أنهار الدماء وتدعون وراءكم أمثال أحد من الجبال ثم تنعمون بفتح مكة والنصر في واقعة جالدران. ثم سيموت كل ذلك بعد شتاء قارس، بعد ليل بهيم، بعد اختلاج آلاف الأوجاع واجتراع آلاف الآلام. ولا جرم أن لكل ولادة مخاض، فالذين يريدون أن يذوقوا لذة الولادة عليهم أن يرضوا بالأم المخاض.

ان الله ﷻ قد وعد بظهور دينه، فالذين يحملون هذا الدين سيكونون أعزاء ظاهرين على الناس ما تمسكوا بدين الله، وسيظهر الله دينه حتماً، إن لم يكن في هذه الديار ففي ديار أخرى من العالم. لأن وعده قاطع لا ريب فيه. ولكنه متعلق بمدى ما تبذله الجماعة من الجهاد والعزم والثبات لتطهير الأرض من النفتن؛ بقول تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٠). أي جاهدوا وقتلوا حتى تزال من فوق الأرض القلاقل والاضطرابات و يبلغ الإنسان إقليماً آمناً وسعادة دنيوية وأخروية معاً. بمعنى ان الجهاد لا يمكن تركه ما لم يعم الإسلام الأرض كلها، ولم تنعم البشرية بالأمن والأمان.

إن الرسول الكريم ﷺ قد أوقد هذا الشعور النوراني في روح الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

ولنلق نظرة إلى جغرافية الأرض المتورة بنور هذا المشعل الوضيء.

انه لم تمض على خلافة سيدنا عثمان ؓ خمس سنوات إلا وقد خضع شمالي أفريقيا كله لحكم الإسلام. ومن الجهة الأخرى اجتاز جيش المسلمين بحر الخزر وفتحوا طبرستان وعقب ذلك فتح ما وراء النهر. أي أن الإسلام بلغ سد الصين، بمعنى أن الله ﷻ قد أنعم على مسلمي ذلك العصر دولة تسع خمسين مرة مساحة تركيا. ذلك لأنهم استحقروا هذه الحياة وابتسموا في وجه الموت. وانتم كذلك متى ما استحققتم الحياة وضحيتم براحتكم وجعلتم الدين حياة لحياتكم وقتلتم الموت خير لي ما دام الإسلام لم يحكم الحياة كلها، عندها سيتفضل الله ﷻ عليكم ويجعلكم حاكمين على الأرض. فالجماعة التي تكابد المشاق لأجل نصب الراية على قمم الأبراج وتعقد العزم على ذلك بنية خالصة لله، وأقرت على سطح الأرض حاكمية الإسلام اندفعت إلى السماء لنصب راية الإسلام هناك. فتكون إذن قد أحرزت عناية الله ولطفه، فيرزقها سبحانه حاكمية العالم.

نعم إن حاكمية العالم لا تتحقق إلا بعد استكمال هذه النفوس الربانية بناءها وبذل أرواحها ثمناً لها.

مكتسبات الجهاد

الفصل الرابع

١. الجهاد ضمان الاستقرار الداخلي والخارجي

إن كل أمة تملك قوة معينة. فان لم تبذل تلك الأمة طاقاتها وقوتها تجاه العدو الخارجي وبلوغ حاكمية الأرض، تحدث الاضطرابات والقلاقل في الداخل. حتى تبدأ المشاحنات بين الأفراد أنفسهم مما يؤدي إلى إراقة الدماء في الشوارع وتشاهد مناظر الجنازات في كل زاوية. ولا تجد في هذه البلاد إلا الأرملة والثكلى اللاتي يذرفن الدموع على فقدان أولادهن وأزواجهن. فلا أحد يأمن على حياته حيث الفوضى والإرهاب قد مد أيديها حتى إلى الأعراس والشرف.

والحال ان الأمة التي تقدّر لها أن تكون حاكمة على الأرض أو في الأقل تكون عنصر توازن فيها، فلا محل للفتن الداخلية فيها إطلاقاً. حيث لا تتوثق عرى المحبة بين الأفراد إلا بالاتفاق تجاه العدو الخارجي فهي من الوسائل التي تقلل المشاحنات الداخلية إلى الحد الأدنى.

ولابد أن نذكر هنا أمراً وهو: ان غايتنا وهدفنا الأساس ليس هو الحاكمية على الأرض لمجرد الحاكمية، ولتحقيق الأمن والنظام في الداخل، بل هذه الأمور ثمرات ونتائج لغايتنا الأساس. أما غايتنا الأساس فهي إعلاء كلمة الله على الأرض قاطبة. ولاشك أنه لبلوغ هذه النتيجة من الضروري أن نكون أقوياء كأمة ونزيل الموانع والعوائق في سبيلنا. وفي الحقيقة يجب ألا نخط هذين

الأمرين بعضه ببعض. نحن نريد القوة كي نستخدمها في سبيل إنفاذ أمر الله سبحانه وإلا فلم يخطر ولا يخطر ببال المسلم أن يحقق القوة لأجل الغلبة والظهور والتحكم والاستبداد.

إن أمة ترزخ تحت الذل والهوان لا يمكن بحال أن تتمثل الحقائق السامية، فكيف لها أن تعرض هذه الحقائق إلى غيرها؟ وأى غيرها أن تتقبل منها وهي تعاني الذل والهوان. لذا ينبغي أن نثبت قوتنا وطاقتنا على أعلى مستوى في جميع مرافق الحياة الأساسية التي توقف الأمة على قدميها قوية عزيزة. فجيشتنا لابد أن يزود بأحدث الأسلحة. ومرافق التربية والتعليم يجب أن تكون مهدياً لأحدث الاكتشافات والعلوم. وقوى الأمن فينا يجب أن تكون لها من القوة ما يلقي الرعب في قلوب الإرهابيين والفوضويين في العالم كله حتى تستنجد بنا الدول الأخرى لدفع ما يعجزون عن دفعه من الفوضى والاضطرابات عندهم. وأن يبلغ اقتصادنا شأناً نوزع من فضائله هدايا ومنحاً للأمم. نعم فلأجل أن نكون أهلاً لتحقيق الحقائق السامية ونتمثلها حقاً ينبغي أن نكون حاكمين على الأرض وهذا شرط آخر لا يتحقق إلا بالجهاد.

إن المؤمن مضطر إلى دفع الظلم في أي مكان كان في العالم. لأن المؤمن عنصر توازن في العالم. ولهذا يبدأ بمحيطة أولاً ثم يجهد بحثاً عن وسائل لتوسيع هذه الدائرة، بهمة رفيعة عالية ترقب العالم كله من علوها، وتخطط للنظم والوسائل المتوافقة مع سموها وشمولها.

لاشك أن المؤمن رحيم على الخلق كريم بهم، وهذا هو السبب الذي

يجعله يضطرب قلقاً لإنفاذ الآخرين. حتى أنه يَحمِل في هذه السبيل كل أذى وجرح وإهانة، وهو سمح حلِيم. إلا أنه في الوقت نفسه كالطود الأشم أمام الفوضى والإرهاب حتى قد يضحي بنفسه في سبيل دفع آثارهما وتعديتهما. والقرآن الكريم يشني على المؤمن بصفته هذه فيقول: «أعِزَّة عَلَى الْكَافِرِينَ» (المائدة: ٥٤).

والمؤمن إذا اقتضى الأمر يجاهد جهاداً مادياً حفاظاً على شرفه وكرامته ويقف في صف أمن ونظام البلاد فيجاهد بنفسه وبأهله، شيخاً كان أو شاباً بل حتى بأطفاله إذا استوجب الأمر لحين تطهير البلاد من شبكة الفساد المنتشرة في أثنائها.

ذلك لأن المؤمن يعلم بفراسته الإيمانية أنه إذا أعطيت أقل فرصة للإرهاب الذي لا يعرف معنى للإنسانية والذي أحاط بالعالم كالحية الرقطاء فذلك يعني فتح باب في الغد إلى ما لا نهاية لها من التنازلات والمطالب.

فالإرهابي الذي يبلغ مطلباً واحداً من مطالبه مهما كان هيناً، لا يكفي به قطعاً بل يسعى لأخذ مطالب أخرى وإلزام على تنازلات أخرى، حيث التنازل يدعو إلى تنازل آخر وهكذا. فلئن وضع في يوم من الأيام شرفنا وأعراضنا ووطننا ككل بل كل مقدساتنا على مائدة المفاوضات فما ذلك إلا نتيجة أليمة - لكنها حقيقية - لهذا التنازل الذي أُعطي لأول مرة. ولهذا ينبغي للمؤمن أن يكون دقيقاً جداً في عدم التنازل منذ بداية الأمر ويكون حازماً صاحب قرار حاسم.

فلئن طالب الإرهابيون غلق المحلات والدكاكين ليوم غد فالمؤمن يفتح محله منتظراً فيه حتى لو كان معذوراً - من جهة أخرى - لسد محله في ذلك اليوم. فهذا العمل يعدّ بالنسبة له أعظم جهاد لأنه يعني مجابهة الظلم فكانه يصبق بوجه الظالم. وهذا في نظره باب يُفتح له للشهادة. لأن الرسول ﷺ قد قال: (من قُتل دون ماله فهو شهيد).^{٦٥}

وإذا ما أتى الإرهابي المسلح إلى باب دارك وطلب منك شيئاً ولو زهيداً جداً لابد أن تقاومه بعدم إعطائك شيئاً له، لأن تحقيق مطلبه الأول، يسوقه ليأتي في وقت آخر ويطلب أموراً أخرى وهكذا حتى لا يبقى لديك شيء وعند ذلك تندم أشد الندم لتفضيلك الحياة على الموت لدى تنازلك لأول مرة. فالعلاج الوحيد لهذا الأمر وللحيلولة دون السقوط في مثل هذا الدل بيدك أنت، إذ عليك أن تفضل الموت الذي تحظى به بمرتبة الشهادة والسعادة الخالدة على بضعة أيام من الحياة الدنيا تقضيها في ذل وهوان.

إن أي نوع من أنواع الإرهاب والفوضى حالياً أجنبي المنشأ بلا شك، فهم يريدون أن يحولوا هذا الوطن الشبيه بالجنة إلى جحيم لا يطاق. ولا أسهل من إرغام دولة خارت قواها نتيجة الإرهاب والفوضى. وهذا ما يصبو إليه الأجانب. فهم يريدون أن تتحول هذه البلاد إلى مستعمرة يستغلونها. والإرهابيون والفوضويون جميعهم ما هم إلا عملاء أولئك المستعمرين. ولكن لن يصلوا إلى مبتغاهم - بإذن الله - وسيحقيق المكر السيئ بأهله. وهنا أمر

٦٥ البخاري، المظالم ٣٣. مسلم، الإيمان ٢٢٦

مهم وهو أن الانشغال بالإرهابيين والفوضويين سيؤخرنا عن بلوغ ما نصبوا إليه من هدف. أليس هذا هو ما يريده أعداؤنا بالدرجة الثانية؟ إذ هم يخشون أن يصلب عود المسلمين يوماً من الأيام، فيصبحوا - أي الإرهابيين - كالخمر المستنفرة فرت من قسورة.

وهنا أمر لابد أن لا يُنسى أبداً وهو: أن المسلم إذا اقتضى الأمر يكون مع قوى الجيش والأمن للدولة تجاه أي نوع من أنواع الاعتداءات الخارجية أو الداخلية. فهذا واجب عليه. ولا يمكن أن يتصور تركه لهذا الواجب. ويكفي أن تدعوه الدولة وتكلفه بوظيفة كهذه. ولاشك أنه سيؤدي هذه الوظيفة متممة لعمل الدولة، وبخلاف هذا فإن أية حركة فردية تؤدي حتماً إلى تهية إرهاب آخر. فعلى المؤمنين أن يكونوا دقيقين في هذا الأمر. إذ لا يملك الإرهاب والفوضى أي جانب شرعي، ولابد أن تُعجث جذورهما.

وأحياناً تقوم الدول بإحداث الفوضى والإرهاب، كما تفعله أمريكا وروسيا والصين... فالوظيفة التي تقع على عاتق المؤمن حينذاك أن يستعمل كل طاقاته وإمكاناته إلى أقصى حد ممكن ويواجه الفوضى والإرهاب المفتعل. وعندما يبلغ الأمر إلى هذا الحد فمعنى ذلك أن الدولة قد أصبحت تحت رحمة الأعداء. وعندئذ فالواجب قد أُلقي إذن على كاهل كل فرد. أي أن الأمة ستؤدي حينذاك ما عليها من واجب وتضيف بطولة على بطولاتها المذكورة في التاريخ. نسأل الله تعالى أن يبعد وطننا ومساكننا من مثل هذه المواقف. ولكن لو قدر الله ذلك فما لنا من محيص غير هذا العمل. فالمؤمن دائماً هو من

يفضل الموت عزيزاً على الحياة ذليلاً. فلا يخيفه الموت. وعلى القوى الخارجية والدول التي تزود الإرهاب وتثير الفوضى أن تعلم هذا جيداً.

فالهروب من الجهاد وترك البلاد والمساكن تحت رحمة الأعداء صفة ذميمة لا ترد حتى إلى رؤيا المؤمن، فضلاً عن أنها دناءة وحقارة ينأى عنها المؤمن ويتجنبها. والقرآن الكريم يعلم المؤمن طريق العزّ وما يجب عليه عندما يثن الضعفاء والمساكين من الرجال والنساء تحت الظلم والتعذيب وليس لهم طريق الخلاص إلاّ الدعاء.

تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥) يا له من دعاء! دعاء كي يخرجوا من ديارهم وآويهم، ذلك لأن المسلمين أضعفوا في تلك الديار. لقد انقطعت قوة الحق، ولكن الوطن هو وطنهم لا لغيرهم، وما فيه من مساكن وآوى هي مساكنهم وآويهم، على الرغم من هذا يريدون الخروج منها. لئلا يعانون هذا الذلّ والمسكنة، وهذا الخضوع والخنوع. ذلك لأنهم حرموا من أبسط حقوق الإنسان، أولئك الذين اغتصبت جميع أموالهم بل كل ما يملكون. أولئك الذين ديست مقدساتهم بما فيها حرياتهم. وحيث أن المنظر يبين لنا هذا الوضع المفجع، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بحيث يهز المؤمن المخاطب هزاً عنيفاً حيث تنزل عليه الآية الكريمة بالتقريع والتوبيخ تلو التقريع والتوبيخ.

إننا لم نقدر الحق حق قدره ولم نقدر على استجابة القرآن الكريم، ولم نصرف كل طاقاتنا في سبيل رفع رايته في جميع أنحاء العالم. لذا قُطِّعنا أوصالاً، تفرقنا شذر مذر. وحيث أن وضعنا هو هذا المنظر الأليم، والأعداء يتكالبون علينا، ونحن نكتفي بالتفرج عليهم كيف يلهموننا قطعة إثر قطعة دون أن نتدخل بشئ. ونقول - آسفين - أن العالم الإسلامي بأكمله يعاني هذا الوضع الدليل المهان، وكأن الحلول انتهت وفقدت كلياً، فبقينا وحدنا بدون حل للموقف. كلا.. ثم كلا.. فإن أحاط الظلام بالمؤمن من يمينه وشماله ومن أمامه وخلفه فعليه أن يوجد نوراً لإضاءة تلك الجهات الأربع.

وعليه أن يوثق صلته بالله تعالى ويرتبط مع رسول الله ﷺ فيوجد من الأنوار ما ينير العالم أجمع ثم يهرع إلى عالمه الخاص فينيره أيضاً.

فليس للمؤمن غير ما سعى وغير ما بذله بنفسه. انه يحصل على كل شئ بعرق جبينه وبجهده وبمقاساته ومكابداته. ثم يتبنى قضيته بنفسه وفي النتيجة يكون قد أنقذ نفسه وأنقذ الإنسانية جمعاء.

فسواء أكانت القلاقل والاضطرابات ناشئة من الفساد الداخلي، أم من الأزمات الناجمة من الإرهاب والفوضى، أم من الضيق والقلق الذي يولده الاعتداء من الخارج، أم من أي من الآلام التي تصيب المسلمين.. هذه البلايا وغيرها لا حل لها إلا بالجهاد المادي والمعنوي.

والخلاصة أن الجهاد هو ضمان استقرارنا الداخلي والخارجي. فالدنيا التي لا جهاد فيها بلا ضمان ولا أمان.

٢. الجهاد يحول دون الذل و الهوان

المؤمن إنما يعزّز بما يقدمه من جهاد داخلي وخارجي. وحينما يترك ما يترتب عليه من واجب، وتستهو به لذائذ الحياة وينحصر همه في أذواقه الشخصية، يفقد المهابة والعزة، ويذل ويهان. فالرسول الكريم ﷺ يقول: (..وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ).^{٦٦}

وهذا يعني أن الحياة العزيزة إنما هي في تحمل بعض المشقات باسم الجهاد. والأمة عموماً تستحق هذه الحياة العزيزة عندما تقاوم وتثبت تجاه تلك المشقات. فلو ترك كل فرد منها الجهاد منغمساً في لذائذ حياته الشخصية عندئذ يحل العذاب الإلهي العام عليها فيصيب الظالم والمظلوم والبريء والمذنب. ولهذا لا بد للأمة من التمسك بالجهاد ككل، كي تحول دون نزول البلاء عليها جميعاً.

وأريد أن أبين هنا حديثاً شريفاً عن سيد الكونين ﷺ وهو:

(إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ)^{٦٧}

وقد فسر (العينة) بالبيع و بشككين:

٦٦ أبو داود، البيوع ٥٤. المسند، ٤٢/٢.

٦٧ أبو داود، البيوع ٥٤. المسند ٤٢/٢.

أولهما: هو شراء بضاعة من أحدهم ديناً، وبعد ذلك بيع البضاعة نفسها بثمان أقل إلى صاحبها الأول نقداً. والغاية من هذا البيع هي: ان الشخص محتاج إلى نقود، وحيث أن أخذ النقود ودفعها بزيادة هو ربا. فيتوسل بالعينة لغلا يكون رباً واضحاً. ويمكن أن نوضح ذلك بمثال: لنفرض أن أحدهم بحاجة إلى ثمانمائة ألف ليرة، فيبتاع بضاعة من شخص بمبلغ مليون ليرة ديناً، ثم يبيع البضاعة نفسها إلى الشخص نفسه بقيمة ثمانمائة ليرة نقداً. فالظاهر عملية بيع وشراء إلا أنها عملية لا تفترق عن الربا، فلا تجوز قطعاً.

أما ما قبله أغلب الفقهاء من التفسير الثاني (للعينة) فهو:
ان العينة عبارة عن تطبيق للبيع المؤجل. مثال ذلك: يأتي المدان إلى المدين ويبلغه انه لا يتمكن من دفع الدين لهذا الشهر. فيضاف مباشرة فرق الأجل إلى دينه، فالرسول ﷺ يشير في هذا الحديث بتفسيره معاً إلى سوء الاستعمالات في الأمور التجارية، ويقول متى ما استولت عليكم سوء الاستعمالات هذه فانظروا الذل والخنوع.

أما الشطر الآخر من الحديث الشريف (وَأَخَذْتُمْ أَذُنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيْتُمْ بِالزُّرْعِ) فلا شك أن النقد الموجه ليس إلى الزراعة، لأن الرسول الكريم يقول في حديث آخر (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَيَدِي أَحَدِكُمْ فَيْسِلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)^{٦٨} وكذلك هو القائل (مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ).^{٦٩}

٦٨ المسند، ١٩١/٣

٦٩ البخاري، الحرث ١٥. أبو داود، الأمانة، ٣٧.

بمعنى أن الإسلام لا يطيق صبراً على أرض ميتة. فلا بد أن تستغل وتحيا. أي أن الحديث الشريف يلوم اختلال التوازن. لأن شريان الحياة الاقتصادية هو الإنتاج، فإذا ما حُصر الإنتاج على الزراعة وحدها وأهملت التجارة والصناعة، معنى ذلك حدوث الخلل في الإنتاج. وإن التصور بحصول التقدم بالتوجه إلى الصناعة وحدها أو إلى التجارة وحدها ليس إلا تعبيراً عن الخلل نفسه. ولهذا فالأمر الأساس هو إعطاء كل ساحة ما يستحق من الاهتمام وبذلك يضمن التوازن في الإنتاج.

ومن المعلوم أن الزراعة تكون في القرى، فأهل القرى إذا توجهوا جميعهم إلى الزراعة يعنى ذلك توقف تقدم المدن كلياً. وتوقف التوسع في المدن يؤدي حتماً إلى موت التجارة والصناعة. ونقيض هذا هو زحف أهل القرى جميعهم - تاركين مزارعهم - إلى المدن الكبيرة والذي يولد خللاً آخر. وما نراه في وقتنا الحاضر من توسع المدن الكبيرة بسرعة هائلة وحدوث مشاكل متناسبة مع تلك السرعة، وإخفاق الخدمات سواءً تحت الأرض أو فوقها وانتشار العطالة إلى أقصى حد.. كل ذلك ما هو إلا بضعة أعراض للخلل.

انه لا مفر من أن نكون تحت رحمة أعدائنا دائماً إن كانت النهضة والتقدم غير متوازنين وظل قسم من الحياة الاقتصادية مرتبطاً بالخارج. حيث أن المؤسسات الصناعية المرتبطة بالخارج، والأمتعة التجارية المرتبطة بالخارج، والمنتجات الزراعية المرتبطة بالخارج.. كل ذلك عناصر تهدد للحياة الاقتصادية. معنى ذلك أن الأصل هو إحداث التوازن في جميع الميادين.

وحيث أنه لم تحدث في عهد الرسول ﷺ مشاكل الهجرة إلى المدن بسرعة، لذا أشار الحديث إلى الخلل الاقتصادي بمصر النظر في الزراعة فحسب. أما في وقتنا الحاضر فقد جلبت الهجرة إلى المدن بكثرة و بسرعة بمشاكل وأزمات حديثة. لذا فإن فكرة العودة إلى القرى أو الاستقرار والإسكان فيها إحدى الحلول التي تفرض نفسها، وهو المفهوم من الحديث الشريف.

من جهة أخرى فالحديث ينطوي على انتقاد الرجوع إلى البداوة أو الإصرار في البقاء على البداوة، بعد التحضر. فهذا كله يورث المجتمع الدل والهوان.

أما الأمر الثالث الذي يفهم من الحديث الشريف وهو (وتركتم الجهاد) أي عندما تنغمسون في أموركم الخاصة وتخلدون إلى الراحة، فإن الدل والهوان ينتظركم. أي كما إذا اسودّ وأظلم هواؤكم المادي، فهوؤكم المعنوي أيضاً سيسودّ، وتكدر النجوم في سماء روحكم، وينخسف قمركم وتنكسف شمسكم. أي لا تسمح لكم الشريعة الفطرية العيش على وجه الأرض.

فالله سبحانه وتعالى لا يرفع ذلك الهوان منكم مهما حاولتم في دفعه ومهما توسلتم وتضرعتم إليه ما لم ترجعوا إلى الدين.

ترى كيف يكون الرجوع إلى الدين لأمثال هؤلاء؟ إن علينا وعلى كاهلنا في الوقت الحاضر حقوقاً هائلة تراكمت منذ عصور. فنحن في هذا العصر لم نوف حقوق أنفسنا بعد ناهيك عن الحقوق الأخرى. وكذا لم تتحقق في هذا الوقت ما ينتظره منا أهلنا وأمتنا وجيلنا من أمور. فلقد تراكمت على ظهورنا

الضعيفة آثامٌ كثيرة وكثيرة جداً. فالمسلم المدرك في القرن العشرين ينسحق تحت هذه الآثام. نعم إنها ليست مسألة هينة، بل عسيرة وجادة. لأن في آذاننا صرخات انهيار منذ ثلاثة قرون، فلن تهدأ هذه الصرخات بمعاناة ربع قرن فحسب. ولاشك أن المسؤول الأول في تردينا إلى هذا الوضع هو أنفسنا نحن. فلا نجاة إلّا بأنفسنا كذلك. فسوف نضغط على أنفسنا، ونضرم مشاعلنا بأيدينا ونتوجه إلى عناية الله، ونحقق هذا التوجه قولاً وفعلاً، فبمقدار قيامنا بهذا العمل تفتح أبواب الرحمة، فنتشعلنا يد الرحمة مما نحن فيه من وضع اليم ونصل بإذن الله إلى ساحل السلامة.

آ) ممن اقتحموا العقبة..

كان الرسول الكريم ﷺ يجاهد العالم أجمع بجماعة، وأن كل فرد من تلك الجماعة كان يعلم جيداً ما يترتب عليه من واجب في أي صفحة من صفحات الحياة. ف(أحد) موقع تجلّت فيه مناظر خالدة من هذا الشعور فلقد بذلوا جميعاً من حق وواجب رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً شبيهاً، وبكل إخلاص وتفانٍ، حتى تبدل الموقف لصالح المسلمين.

يذكر أنس رضي الله عنه: إثنان لم تغادرا نظري. الأولى: والدتي (أم سليم). والأخرى: أمنا عائشة، كانتا تسرعان إلى المدينة فتأتیان بالماء إلى الجيش فترويان به.

وما إن تنتهيا من ذلك حتى تساعدان في ضماد الجرحى، وهكذا لم تفارقا هذا العمل طوال اليوم.

وفي هذه الأثناء جاءت عجوز، حتى يمكن أن يقال أنها مقعدة لا طاقة لها على العمل. أتت وهي تمسك يد طفلها إلى النبي ﷺ. فما كانت تقدر على ضماد الجرحى ولا غيرها من أعمال الحرب، وإن كانت على شعور تام بما عليها من واجب. فكانت تريد أن تشارك في (أحد) بالقدر الذي يتيسر لها وبأفضل وجه.

فلكم يستحق هذا المنظر الجميل التأمل في وجه هذا الطفل والعجوز وشوقهما لخدمة الحق! إن السيف المعلق في كتف الطفل يكاد يلامس الأرض. إن جسمه صغير كاد ألا يحمل السيف بخلاف روحه التي تناطح السماء. قالت العجوز لرسول الله ﷺ: ليس لي ما أعطيه ولا طاقة لي بعمل. ولكن هذا ابني، أهبه لكم، كي يحارب ويدافع عنكم. فنظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطفل الذي تشرق عينه منتظراً الجواب منه. فكانه يقول بنظراته الثاقبة: إئذن لي يا رسول الله أن أفديك بروحي. فالذي يطلب هذا الطلب النابع من صميم القلب، لا يمكن أن يُرفض. لذا قبل الرسول ﷺ طلب هذا الطفل وضمه إلى صفوف جيش المسلمين. فاقتحم الطفل بسيفه الذي هو أطول منه صفوف العدو، وكأنه قد كبر حالاً وتحول إلى شاب يافع. بيد أن (أحد) كان ثقيلاً جداً، فما كان يتحمله إلا أمثال حمزة، وابن جحش، ومصعب.. إلا أن الطفل أيضاً قد أخذ على كاهله جزءاً من هذا الحمل الثقيل. ولكن هذا الجسد النحيل لم يتحمل ذلك الحمل الثقيل، فوقع على الأرض بضربات العدو - وبعد قليل سيتسابق مع الملائكة في طريقه إلى الله -

فاتحضنوا هذا الطفل وحملوه إلى الرسول الكريم ﷺ كان قلبه يخفق خفقان قلب الطير. ووجهه يشعّ بابتسامة وبهجة والفرح يطفح من عينيه. لأنه سيلقى نفسه بأحضان الشهادة وسيغادر رياض (أحد) التي تلتهب ناراً إلى سفوح الجنة.

قال الرسول ﷺ وهو يحرق بنظره الشريف في عيون الطفل التي تلمع فرحاً سروراً: أ تشعر بألم. والطفل يخشى أن يؤلم الرسول ﷺ فقال: لا يا رسول الله. وكان الشمس الحزينة التي أوشكت على الغروب على (أحد) تهباً للشروق مرة أخرى في وجه الطفل.^{٧٠}

"وقالت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد، فذكر سعيد ابن أبي زيد الأنصاري أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول دخلت على أم عمارة فقلت لها يا خالة أخبريني خبرك. فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعني سقاء فيه ماء فانتبهت إلى رسول الله وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انخزت إلى رسول الله فقمت أبأشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح الي.

قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت لها من أصابك بهذا؟ قالت ابن قمئة أقماه الله، لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول دلوني على محمد، لا نجوت ان نجا. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله فضربني هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كانت عليه درعان".^{٧١}

٧٠ ابن أبي شبة، المصنف ٧/ ٣٧٠-٣٧١. يوسف الكاندلعلوي، حياة الصحابة ١/ ٥٩٨-٥٩٩.
٧١ ابن هشام، السيرة ٣/ ٨٦-٨٧. ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٥.

استمرت المعارك إلى المساء. كان من الضروري الحفاظ على المدينة من الداخل. وكانت صفية كبرى عمات رسول الله ﷺ في المدينة، فانطلقت إلى (أحد) حالما سمعت بإصابة الرسول ﷺ بالجراح. كانت ترمى نفسها كأم عمارة على المصيبة مختربة صفوف العدو بعدما أخذت ربحاً من الأرض. لم يتحمل الرسول ﷺ هذا الموقف، فقال لابنها: "انطلق إلى أمك.. فهي امرأة". قاله باضطراب، حيث كانت تدفع الكفار من أمامها وتجعلهم يولّون الأدبار...^{٧٢} بمعنى: أنه إذا اشتد الأمر فالمرأة كذلك تنهض بواجبها.

نعم، إن المؤمن سينطلق إلى الجهاد تجاه المصائب المقبلة سواء من الخارج أو من الداخل، ويوفى مسؤوليته حقها تجاه أهله ودينه ووطنه وأمه. ولا بد من جهاد بالنساء والأطفال والرجال والشباب والشيوخ فلا تبذل الجهود منحصرأً في شرائح معينة من الحياة، بل في كل صفحة من صفحات الحياة.. وبكل مستويات المجتمع.. إذ بخلاف هذا فالهزيمة محققة مقدرة لا محالة. فكما يحتضن المؤمن الحياة كلها، فالجهاد أيضاً معنى شامل كهذا يحتضن الحياة كلها.

(ب) من اجل حياة عزيزة..

إن طريق الحياة العزيزة تمرّ من معرفة ما هو جدير بالموت. نعم، الموت في سبيل ما يستحق من لأجله الموت. فإذا ما استسهلنا الموت في سبيل ما نحن مكلفون بالحفاظ عليه من أمورنا المقدسة، أو إذا استعدنا للموت في سبيلها سندوق لذائذ الحياة الأبدية ولما تغادر هذه الحياة الدنيا، فضلاً عما أعدّ لنا في

٧٢ الكاندهلوى، حياة الصحابة ٨٨/٢، ابن حجر، الإصابة ٣٤٩/٤

الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فالرسول ﷺ يستثير عشقنا للجهاد ويقوى من عزيمتنا في حديثه الشريف الآتي.

(ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولو دِدْتُ أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ).^{٧٣}

فيا لها من مرتبة عظيمة وشرف رفيع سام، الموت في سبيل الله والجهاد في سبيله، وما أعظمه من وظيفة مقدسة جليلة حتى يرغب سيد المرسلين وسيد الكونين والنقلين، وهو في ذروة الكمالات في أن يكون مع كل سرية في سبيل الله، علاوة على مهمة الرسالة العظمى التي يؤديها. ويتمنى أن يُقتل في هذه السبيل ثم يُحيأ ثم يُقتل ثم يُحيأ ثم يُقتل ثم يُحيأ. فما أضيع إذن تلك الحياة التي لا جهاد فيها! وفيه هذا الشرف العظيم، الذي يطلبه ويحرص عليه كل ذي لب لا محالة.

فالأحاديث الواردة في الجهاد تلفت النظر حقاً، نذكر منها:

(من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق)^{٧٤}. أي أن هذا الإنسان يسلم روحه في وسط النفاق.

وفي رواية أخرى: (من لقي الله بغير أثر من جهاد لقي الله وفيه ثلثة)^{٧٥} أي إن مثل هذا يأتي إلى المحكمة الكبرى محمراً وجهه من نقص يُخجله ويخزيه.

^{٧٣} مسلم، الأمانة ٢٨، البخاري، الإيمان ٢٦، النسائي، الجهاد ٣.

^{٧٤} مسلم، الأمانة ١٥٧، أبو داود، الجهاد ١٧، النسائي، الجهاد ٢.

^{٧٥} الترمذي، فضائل الجهاد، ٢٦. ابن ماجه، الجهاد، ٥. ٣

ان بين أيدينا وأيماننا وشمالنا الكثيرين جداً من المظلومين المعتدى عليهم الذين يعانون تحت الظلم ويكابدون العذاب. و مثلما يجب ان نسعى لإنقاذ المظلومين هؤلاء كذلك من واجبتنا أيضاً كفّ الظالم عن ظلمه. وإلاّ تلقى رب العالمين ونجاضى بما يفوق كل الآلام التي نراها في الدنيا. فأية شقاوة أكثر من لقاء رب العالمين بهذا الخزي والعار.

وفي حديث آخر للرسول الكريم ﷺ يذكر فيه ما يصيب الأمة من بلايا حتى يسأل الصحابي كل مرة: وهل هذا حادث يا رسول الله ؟
يسأله وهو متعجب مما سيقع. ويحييه الرسول الكريم ﷺ: بل يحدث أشد من ذلك...

(عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق فتيانكم قالوا يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشد منه. كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشد منه كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا).^{٧٦}

وهكذا تتبين أهمية ما نحمّله من أمانة وتكليف. إن أعماق قلوبنا وأشد مواقعها شعوراً ورقة ترزخ تحت أثقال ذنوب وخطايا تراكمت منذ ثلاثة قرون مضت بل تتن أنيناً من آلامها. ولا دواء لدائنا إلاّ بمكابدة دائنا لا غير.
ان الذهاب إلى الجامع لأداء الصلوات أحياناً وأداء فريضة الحج منابع

٧٦ أبو يعلى ، المسند ١١/٤٣٠ الميمني مجمع الزوائد ٧/٢٨٠ - ٢٨١ .

طمأنينة لبعضنا. والحال إن ما نحن فيه من فظاعة الموقف لا يزيلها إيفاء تلك الفرائض وحدها. ولا أظن أن لنا حلاً لما حلّ بنا من وضع مخيف إلاّ بإيفاء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل وسائلها وتشكيلاتها. ولا شك أن إيفاء هذه الوظيفة السامية موكل إلينا نحن أيضاً، نعم نحن فرداً فرداً، وإلاّ لا ننجو من مغبة السقوط في الهاوية التي وصفها الحديث الشريف، وأعلمه رب العالمين بالقَسَم في نهايته، وكأنه وصف لأوضاع مجتمعنا الحاضر.

عوائق الجهاد

الفصل الخامس

١. لا انسجام بين الجهاد والدعة

ان الذي يعيق الإنسان عن مهمة الجهاد هو الركون إلى الحياة والافتتان بلذائذها. فالذي لا يستطيع ترك راحته ولا يضحى بمحظوظه الشخصية وأذواقه الذاتية، لا يُنتظر منه مهمة جليلة كالجهاد، بل من العبث الانتظار. ذلك لأن المهام الجليلة لا ينهض بها إلا من يضحى بمطامعه الشخصية وأذواقه المادية والمعنوية.

ان عشاق الجهاد يرغبون في العودة إلى صفوف الإنسانية ليسعدوهم بإدامة الجهاد حتى عندما تتفتح لهم أبواب الجنة على مصاريعها وتستقبلهم الحور العين ويستقبلهم الولدان المخلدون كاللؤلؤ المنثور.. هؤلاء العشاق هم الذين ينجزون المهام الجسام.

أعرض لكم هذه المسألة بجهتها النازرة إلى الدنيا:

تصوروا مجاهداً يُسرّ له الصعود إلى مقام عضوية البرلمان أو عُرض عليه ليكون رئيساً للوزراء أو رئيساً للجمهورية. فهو يفضّل - حتى في هذا الموقف - أبسط خدمة تتعلق بمهمة الجهاد المقدسة على تلك العروض. إننا ننتظر ونترقب هذا الإنسان منذ سنين طوال. هذا الإنسان الذي استوعب روح الجهاد وأشبع بعشق النضال والكفاح.

أما الذي لا يستطيع أن يضحى بأحاسيسه المادية وفيوضاته المعنوية ، ولم يعقد العزم من أول الطريق، فلا نأمل منه شيئاً، بل نقلق ونخشى من عواقب المشكلات التي ستأتينا منه حالما يظهر في الساحة. إن من لم يترك دنياه

وعقباه، ولم يترك حتى التفكير في هذا الترك، ولا يرى جميع لذاته وأذواقه فيما يجاهد في سبيله في عشق مطلق ولذة مطلقة، ولا يجد لذته في سعيه بالذات، ولا يستطيع القول: "ما أطيب الموت في سبيلك يا الهي"... لا نثق بجهاده ولن نثق ولا نرى أن جهاده يكون مثمراً ولا يكون في سبيل الإسلام وإنقاذ الأمة. بل نثق بكفاح وجهاد الذين يدعون متعمهم الشخصية وحظوظهم النفسانية، و يتركون حتى مساكنهم وبلادهم دون أن يعقبوا على شيء كما فعله الصحابة الكرام، أولئك الذين استعلوا على شهواتهم وملذاتهم المادية. فهؤلاء هم الذين ننتظرهم منذ مدة ونأمل منهم الجهاد، ونعدّهم من أسباب العناية الإلهية.

ومقابل ما ننتظره ونأمله، ينبغي أن يكون ما يعملُه إنسان اليوم باسم الجهاد والكفاح على النمط نفسه ومتوجّهاً إلى الوجهة نفسها. أي يجب أن يجاهد وفق هذا المفهوم، وفي الحقيقة أن القرآن الكريم يذكّرنا دوماً بهذا النمط من الجهاد إذ يقول الله تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: ٣٨-٣٩).

أي أفبقوا وبلغوا كلمة الحق، ودعوا جانباً متع الحياة الدنيا وشهواتها الحيوانية والجسدية، في سبيل إعلاء كلمة الله في الآفاق فما لكم تشاقلون إلى الأرض ولا تنفكون عنها وعن مطامعكم الشخصية وترضون بهذه الحياة

الدنيا وتنبهون امامها. ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ أو أشفقتم على الحياة الدنيا التي لا تغني شيئاً. سيزول ويأفل كل ما حولكم من شباب وصحة ومال وثروات، فليس في وسعكم الاحتفاظ بها، وستتطلق الحشرات والزفريات من ارواحكم وانتم تتباعدون عنها. والحال تنتظركم العقبي وديار الأبدية والخلود فلا زوال لنعيمها ولا نفاذ للذائذها وفوق ذلك مشاهدة جمال رب العالمين في كل أسبوع.. فبينما الأمر هكذا، أَرْضَيْتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ؟

وهناك آية أخرى تشير إلى ان الدعة تعيق الجهاد .

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ٤٢).

بمعنى أن لو كان ما يدعون إليه فيه ما ينتفعون به من غنيمة قريبة، ومن سفر قريب فيه الراحة والدعة، لاتبعوك ولجاءوا معك دون شك ولا شبهة. ولكن الأمر خلاف هواهم ورغباتهم. فلا منافع مادية قط فيما يقصدون اليه، ولا مناصب ولا جاه يغمنونها من هناك، فضلا عن ان الطريق طويل جدا. لذا سيفترق المؤمن عن المنافق هنا افتراقا تاماً. وبينما المؤمنون يتبعونك من دون تردد يسعى المنافقون ليجدوا طرق الهروب ووسائل التخلف، ولا يجدونها إلا في الكذب، وبهذا يهلكون أنفسهم. حيث لا عائق أمامهم عن الجهاد كما يعلمه و يصدق وجدانهم. والأعداء التي ساقوها ما هي إلا لخداع أنفسهم. ولهذا يظل وجدانهم في قلق واضطراب. وقريب هلاك من لا راحة لوجدانه.

ان معرفة الجو الذي كان يسود المدينة المنورة قبل "تبوك" لها أهميتها لمعرفة أبعاد المسألة. ولهذا سنبحث باختصار عن ذلك الجو:

رجع المؤمنون تَوّاً من سفر، وكانوا بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة للتأهب لسفر جديد. وقد حان وقت حصاد الثمار. والجو شديد الحر. في هذا الوقت بالذات دعا الرسول ﷺ المؤمنين إلى السفر.

استجاب المؤمنون بما لديهم من غال ونفيس لهذه الدعوة. فأتى سيدنا أبو بكر بكل ماله إلى الرسول ﷺ. وخص سيدنا عمر الفاروق نصف ماله لهذا الغرض. وما بذله سيدنا عثمان لا حد له. أما سيدنا علي فقد أعطى قسماً من ماله سرّاً وآخر علانية وفق إدراكه الخاص للإخلاص. ودفع سائر المؤمنين ما يملكون كل حسب استطاعته. فدخل الجميع في سباق للبذل والإنفاق والمنافسة في الخير بآخر ما يملكونه. والنساء اشتركن أيضاً في هذه المسابقة للخير حتى امتلأت حجرة أمّنا عائشة رضي الله عنها بحاجات نسائية. إذ قدّم ما يملكن من حليّ. فمنهن من نزعن قلادتهن وأسوارهن وأقراطهن وقدمنها لهذا الخير العظيم. وهكذا كانت إجابة المؤمنين لدعوة الرسول الكريم ﷺ.

أما المنافقون فكانوا يشترطون لإجابة دعوة الرسول ﷺ بالآ يكون السفر طويلاً ولا الجو حاراً، ولا يكون في موسم الحصاد.

ومنهم من يأتي باقتراح آخر فيستأذن الرسول ﷺ، وكان "جذّ بن قيس" من هؤلاء، و كان يسرع إلى الصلاة بمجرد سماعه الأذان، ولكنه لم يتمكن من غرز الإيمان في أعماق القلب، وتحويله إلى إذعان، ولم يترفع عن أهواء

نفسه. فعجز عن أن يعزم الانخراط مع المضحين... أتى إلى الرسول الكريم ﷺ وكان الرسول يعالج فرسه بيده الشريفة، وعندما شاهد قيساً قال: حتى أنت لا تأت معنا؟ إذ لم يكن ممن يُنتظر منهم التخلف. ولكنه لا يأتي بل يحال دونه. فلا يمنحه الله هذا الشرف العظيم، كان وقحا قليل الحياء فتقدم إلى الرسول الكريم ليستأذنه قائلا: "يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن". والقرآن الكريم يوضح أمره هذا بالآية الكريمة الآتية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٤٩).

وجاء آخرون ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فكان جواب الرسول ﷺ هو جواب القرآن ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨١) فالذين قاسوا المشقات وتجشموا الصعاب وتجرعوا الآلام هنا سيكونون في مأمن عن النار هناك. أما الذين أمضوا حياتهم في الملذات واستمتعوا بها سيعرضون على النار هناك ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ (الأحقاف: ٢٠)

نعم، القرآن الكريم يستنفر المؤمنين جميعا للجهاد، وسنكون من الفائزين أو الخاسرين حسب استجابتنا لهذه الدعوة. فإما نقول: عسير علينا ترك لذائذ هذه الحياة كما قاله المنافقون. أو نعمل بمثل عمل الصحابة الكرام الغر الميامين فنأتي بما لدينا ونأهب للجهاد.

أمثلة من الرسول الكريم ﷺ وصحبه الأطهار

حول ترك الدعة والراحة

لأجل الفوز بالدنيا والعقبى يترك الرسول الكريم ﷺ بيته وبيت الله المالكعبة الشريفة مركز الأرض، ويترك مكة المكرمة التي عاش في أكنافها والفيض الإلهي المقدس في أجوائها وفي جبالها ووديانها، ويترك غار حراء عائق فيه السماويين.. يترك كل هذا ويعلمنا كيف ينبغي للمؤمن أن أحب شيء عنده في سبيل دعوة جليلة مقدسة. وحينما أخرجه قومه من المكرمة لم يكن في حالة روحية أليمة لتركه ما وراءه، بل كان ينظر ونشوة إلى ما يقابله في أفق المستقبل.

العدو يتربص به الدوائر ويتعقبه خطوة خطوة ويحيط به من كل كاحلقة من نار حتى بلغ به الأمر الاختباء في غار ثور، ومن هناك يه الحامل الأبدي للدعوة العظيمة إلى المدينة المنورة لبني الصرح السامق ويس الإنسانية جمعاء، ولأجل هذا كان في كل آن يسبح في حضن موت - وكأنه يجابهه في كل زاوية وفي كل ساحة وميدان. ولكن لم تستطع العوائق كلها من أن تورث فيه اضطراباً أو قلقاً قط. وحتى عندما كانت الأعداء تشاهد من الغار الذي اختبأ فيه، كان سيدنا أبا بكر ﷺ يعلق / رسول الله ﷺ إلا أنه كان في اطمئنان بالغ كما يصفه أبو بكر ﷺ ".

يبحث طمأنينة كأنه بين أصحابه الأمناء". ثم ما الداعي إلى القلق والاضطراب؟ فلئن كان الله سبحانه يريد أن يأخذه من هذه الدنيا فسيأخذه اذن من تحت عبء عظيم وسيرسله إلى عالم الراحة والطمأنينة. فلم يضطرب؟ ألا ينجو من دنيا كل شيء فيها زائل إلى عالم كل شيء فيه باق؟ أليس الله معه كل حين؟ ألا يراه ويرى كل أحواله كل آن؟.. ولهذا خاطب أبا بكر بـ(ما ظنك باثنين الله ثالثهما) بمعنى أو تظن أن محمداً وأبا بكر وحيدان فريدان؟ إن الله معنا. هكذا كان يقول لأبي بكر ولا يخاف قط. بل لو عاداه أهل الدنيا كلها لم يغتم ولم تنل الدنيا منه شيئاً قط. بل لو تركه الناس كلهم أجمعون وحتى أبا بكر لكانت ثقته بالله واعتماده عليه تملآن قلبه اطمئنانا به، فإله سبحانه وتعالى يؤيده بجنود لا نراها.^{٧٧}

نعم، إننا لا ندرك كيفية أولئك الجنود ولكن ندرك الحقيقة الآتية وهي: ان الرسول الكريم ﷺ كان مؤيداً بجنود الله مرات ومرات.^{٧٨} وما معركة بدر إلا أنشودة هذا التأييد. فمثلما يُطلق على الصحابي الذي اشترك في بدر انه من "أصحاب بدر" كذلك يطلق على الملك الذي اشترك فيها انه من "ملائكة بدر".^{٧٩} يذكر صحابي جليل إحدى تلك البطولات الفريدة الخارقة بالآتي:

(بيننا رجل من المسلمين يشدد (يسرع) في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى

^{٧٧} انظر البخاري، تفسير سورة التوبة ٩. المسند، ٤/١.

^{٧٨} انظر سورة التوبة: ٢٦ مسلم، الجهاد والسير، ٥٨.

^{٧٩} البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١١.

المشرك أمامه ، فخر مستلقياً. فنظر إليه ، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط...) ^{٨٠} وعندما ذكر الحادث للرسول الكريم ﷺ قال: "حيزوم" اسم فرس جبريل والذي ضرب السوط هو. فكان جبريل قد تعمم بعمامة صفراء كعمامة الزبير بن العوام ويضرب يمنة ويسرة". ^{٨١}

وفي أحد افتقد الرسول الكريم ﷺ مصعب بن عمير، و كان أمامه مصعب يقاتل بين يديه. وعندما آلت الشمس إلى الغروب وولى الكفار، قال الرسول ﷺ: "أقدم يا مصعب" ولكن الذي ظنه مصعباً هو ملك كريم. قال: لست مصعباً يا رسول الله. ^{٨٢} وهكذا يفهم كيف أن الله يؤيده بالملائكة. نعم إن الله سبحانه وتعالى ما ودّع حبيبه ﷺ وما قلاه قط. ^{٨٣} وفي حنين لم يتركه الله عز وجل في تلك الآونة الحرجة جداً دون تأييد من الملائكة. ^{٨٤}

إن أغلب الذين يتخلفون عن الجهاد إنما يتخلفون عنه خوفاً على الحياة. والحال لا يُترك قطعاً من يسير في هذا الدرب ويدرج في هذا السبيل ولا يبقى وحيداً فريداً كما لم يُترك وحيداً قدوتنا العظمى ومفخرة الكونين في أحلك الأزمان وأحرج الأوقات.

إن من يستسلم لله حق الاستسلام لا يقلق أدنى قلق ولا يضطرب قط، لأنه يعتقد: "أنني مؤمن بالله، فهو معي، لا داعي إذن للتوتر ولا إلى التسبب.

٨٠ ابن كثير، التفسير، ٥٦٠/٣-٥٦١. مسلم، الجهاد والسير، ٥٨.

٨١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨٣/٦

٨٢ ابن سعد، الطبقات، ١٢١/٣

٨٣ انظر الى سورة الضحى: ٣

٨٤ انظر سورة التوبة: ٢٦

فلا يخيفني شيء أبداً مادام الله الذي لا إله إلا هو له الملك وله القدرة المطلقة
ظهيري ونصيري". فما ينبغي التردى إلى هاوية التردد كما تردى فيها اليهود.
إذ لما استئنفروا للجهاد عصوا نبيهم لما ساورهم من قلق بلا سبب فأبدوا عدم
الاطمئنان بالرب الجليل. وان تخلفهم كان لتخوف لا معنى له لم يفدهم شيئا
غير جلب ما يُتخوف منه. فنالوا صفقة تأديب خلاف مقصودهم، فتاهوا
أربعين سنة في الصحراء.

ونحن إن كنا نريد أن ينتهي ما نحن فيه من تيه واضطراب نقاسيها طوال
ثلاثة عصور خلت، علينا أن نعود إلى هويتنا الأصيلة وشخصيتنا الذاتية في
ظل تربية الحقيقة الأحمدية عليه الصلاة والسلام، ونسعى للاندماج بالإسلام..
نعم، نسعى كي ينجينا الله تعالى مما نخشى منه ونضطرب فيه. وسيجعلنا
سبحانه وتعالى أعزاء كرماء مادمن لا نركن إلى المنافع المادية كثيراً ولا نشغفها
حباً ولا ننكس رؤوسنا أدلاء أمام مطامع الدنيا بل ندير ظهورنا إليها وإلى
أذواقها ولذائدها.

من الناس من يضحي بآخرته لأجل نعم دنيوية ولذائدها، ومنهم من يجعل
دنياه كلها في سبيل آخرته. فالمؤمن هو هذا. فهو يستخدم كل ما منحه الله
سبحانه له في الدنيا في سبيل إعمار آخرته.

المؤمن هو من يعيش لدينه. فإذا أصبح الدين مهيمنا على العالم ومسيطر
عليه وجعل الأرض تحت حاكميته فعندها تكون حياته معنى. وإلا فالحياة
المعاشة ليست إلا عبثاً ثقيلاً. المؤمن لا يحب نمط حياة لا يهيمن عليها دينه.

بل يقول: "تباً لمثل هذه الحياة". فالؤمن الحق يترنم ويستشعر دائماً صدى هذا القول:

"لقد ضحيت حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم، فليكن سعيد بل ألف سعيد قرباناً ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليوناً فقط بل في سبيل إيمان المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين. ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حنى في الجنة، إذ ستكون هي أيضاً سجنناً لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فإنني أرضى أن أحرق في لهيب جهنم، إذ بينما يحترق جسدي يرفل قلبي في سعادة وسرور."^{٨٥}

فهذه كلمات من استعلى على رغبات النفس الأمارة. ومن المعلوم أن من استعلى على رغبات نفسه وحظوظها لا يحول دونه شيء.

٨٥ سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧

٢. علاقة الجهاد باستحقاق الحياة

إن استحقاق الحياة مرتبة أعلى من ترك الدعة والراحة وهو الآخر شرط مثله لمن يريد الجهاد في سبيل الله وضمن مرضاته ووفق موازينه. أجل ان جهاد الذين لا يستطيعون استحقاق الحياة ويعجزون عن رؤية العقبي واضحة كرؤيتهم للدنيا، من الصعوبة جدا ان يعيشوا الجهاد بكل أبعاده. والدليل على هذا من خير القرون:

"قال علي عليه السلام: لما انجلي الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد نظرت في القتلى فلم أر رسول الله ﷺ فقلت والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه ﷺ فما في خير من أن أقاتل حتى أقتل فكسرت جفن سفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم." ٨٦

نحن مضطرون للتوغل في الحياة الاجتماعية والجهاد المستमित المستديم. مضطرون إلى جهاد لا يُغنى من ورائه غير مرضاته سبحانه، مشحون بـ: "ليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم". وينبغي أن تكون أنبل غايتنا التضحية بكل ما نملك في هذا السبيل. مرددين ما قاله ثابت بن الدحداح يوم أحد والمسلمون أوزاع: يا معشر الأنصار إليّ إليّ إن كان محمد قد قتل فإن

٨٦ أبويعلى، المسند ٤١٥/١؛ انظر الكاندهلوي، حياة الصحابة ٥١٥-٥١٦، ابن حجر، الإصابة ١/ ١٩١؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة ٣١٣/١

الله حي لا يموت فقاتلوا عن دينكم".^{٨٧} فعلينا أن نغادر هذه الدنيا كما غادرها بابتسامة مشرقة مستنشقا رائحة الجنة دون أحد.

إن استحقاق الحياة بكافة مرافقها وإقامة التوازن بين الدنيا والعقبى هو المعيشة اللائقة والحياة المثلى. إذ تنحل كل الأمور بعد إقامة هذه الموازنة. فالأساس هو إقامة هذا التوازن باختيار الأولى والألزم لدى مواجهتنا الدنيا والآخرة معاً واستقرارهما بثقليهما كلها في وجداننا. وهذا يقتضي تقييم الدنيا بقدر قيمتها والآخرة بقدر قيمتها.

فالذين يستطيعون إقامة هذا التوازن لا يدنو منهم خوف ولا قلق. فلو انفلقت الدنيا على رؤوسهم لما ساقهم إلى أي اضطراب كان. ذلك لأن الخوف والقلق إنما ينشآن من عشق الدنيا والهيام بها بينما هؤلاء يستحقرون الحياة. فلا يعني في مثل هذه الحياة العابرة القلق والاضطراب شيئا. وعليه فإن ما يستحق الربح والفوز هو في ديار الآخرة، فيجب بذل الجهود الى تلك الجهة. حيث الشوق إلى الآخرة نبع فياض مبارك للشجاعة والجسارة.

انظروا إلى هذا المثال: لقد ضحى المسلمون بسبعين شهيدا في أحد، والباقيون أُنخنوا جروحا. وهكذا رجعوا إلى المدينة. حتى كان الرسول ﷺ معصوب الرأس من الجرح، والجميع منهكو القوى لا يقدرّون على حمل سلاح. في هذه الأثناء إذا نجبر يشاع بين الناس مفاده أن أبا سفيان سيأتي مع جيشه إلى المدينة مرة أخرى. وما أن بلغ رسول الله ﷺ هذا الخبر حتى أمر

٨٧ الكاندهلوي، حياة الصحابة ١/٥١٦ صفة الصلوة ١/٦١٦

بالخروج لطلب العدو و "أن لا يخرج معنا أحد إلا حضر يومنا بالأمس". لم يتوان أحد قط عن إنفاذ الأمر. علما أن بعضهم قد فقد ذراعه وآخر فقد ساقه ورجله ولكنهم جميعا حضروا منتظرين في مكان التجمع، بل كان منهم من أتى زحفا. إذ لما كان الأمر هو الخروج للجهاد فلم يقعد صحابي في زاوية ولم يتخلف. انه لا يحمل خوفا ولا فتورا، على الرغم من أجسامهم المشخنة بجروح استنفدت طاقتهم ولكن أرواحهم كانت تطير بأجنحة الشوق. والقران الكريم يبين وضعهم بالآتي:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)

لقد أثر هذا الخروج في صفوف العدو تأثيرا عظيما حيث ولّوا مدبرين ولم يعقبوا على شيء لما ظنوا ان المسلمين قد خرجوا لطلبهم والتحق بهم قوات ممددة. وهكذا سجل حفنة من الأسود المخرجين بالجروح بجسارتهم سطورا ذهبية في التاريخ، فغدا المسلمون منتصرين في أحد كذلك^{٨٨}. حقا إن المسلم هو الفائز دائما. إذ يفوز بإحدى الحسينين فيصبح شهيدا أو مجاهداً أو يصون عزته وكرامته فيفوز أيضا. سأورد هنا إحدى مشاهداتي:

في غضون أيام الإرهاب والقوضى التي ضربت أطنابها في البلاد. حتى بدأ الإرهابيون يفتشون السيارات العابرة ويتخذونها ترسا لهم تجاه قوات الجيش والشرطة للدولة. ولما أرادوا مرة حجز شاحنة مارة واتخاذها ترساً، إذا بسائق

٨٨ ابن كثير، البداية والنهاية ٤٩/٤

الشاحنة - ولا نعلم مبلغ إيمانه ودينه- يخرج عليهم وليس بيده سوى عصا غليظة فيشتت عشرين منهم أيما تشتت. هكذا المسلم مضطر في سبيل صيانة عزته وكرامته ان يبدي جسارة كما أظهرها هذا السائق صيانة لماله وعرضه وشرفه. وعلى المسلم ان يعرف كيف يتصرف تجاه الأعداء، فلا يستسلم للإرهابي ولا يقبع في بيته في خوف ووجل. بل عليه ان يكون معاوناً على الخير معينا على الحق.

ولأجل ألا تفسح المجال لتأويلات وتفسيرات خاطئة لابد أن أوضح أمراً: إنني لا أقول لأحد أبداً كان تسلحوا وجوبوا الشوارع والأزقة لا أقول هذا قطعاً. وإن ما أقصده هو ان الخوف والقلق غير وارد لمن آمن بالله.

وإذا أردنا أن نبين مثالا لهذا فسيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه في مقدمة الأمثلة: كانت أزقة مكة في يوم من الأيام تهتز بخبر مذهل يصدم الناس كلهم. فقد أُشيع ان محمداً الأمين قد قتل الجميع في حالة حيرة وذهول لا يعرف كيف يتصرف، غير غلام لا يتجاوز الإثنتي عشرة سنة من العمر يركض من زقاق إلى آخر وبيده سيف يحره. هذا الغلام هو الزبير بن العوام الذي حظي بعد مدة بلقب حوارى رسول الله ﷺ ^{٨٩} وهو ابن عمه رسول الله صفيّة. كان ينتقل هنا وهناك كالجذوب، ولم يكن أحد يعرف ماذا يريد ان يصنع. وأخيراً وفي إحدى الأزقة إذا به أمام رسول الله ﷺ فقال له: "إلى أين يا زبير؟". فاضطرب الزبير إذ كان يظن أن سيد الكونين رسول الله قد قتل. فقال:

٨٩ البخاري، الجهاد، ٤٤١ مسلم، فضائل الصحابة، ٤٨

اذهب الى قتل من قتلک. فسأله رسول الله بابتسامة: بم ستقتل من أراد قتلي؟^{٩٠} قال وهو لا يكاد يرفع يده الواحدة السيف فرفعه بيديه وقال: بهذا السيف يا رسول الله. اجل أن الزبير قد انطلق إلى الأزقة حاملا سيفاً لا يستطيع حمله، ذلك لأنه يعلم ان لا قيمة لحياة لا تنطوي على محبة رسول الله. وهو يستحق الحياة مظهراً بطولته.^{٩١}

نرى في الإمامة أيضاً منظراً آخر لاستحقاق الحياة. منظراً مهيباً لمن توجه الى الآخرة. كان عمار بن ياسر قد بلغ من العمر مبلغاً ولكن ما كان يقول "لقد كهلت فلا حرج علي". كانت الحرب قد استعرت على اشدها وبدأ الانحلال يطرأ على اليمين والشمال فإذا بالمسلمين يسمعون صوتاً مألوفاً لديهم ليس غريباً عليهم، يقول: "أيها المسلمون أهروبا من الجنة؟ فها أنا عمار بن ياسر".

"عن عبد الله بن عمر قال: رأيت عمار بن ياسر يوم الإمامة على صخرة وقد أشرف بصيح يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون أنا عمار بن ياسر هلموا إلي وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تدبذب وهو يقاتل أشد القتال".^{٩٢}

اجل لقد صدق قائد هرقل عندما قال: "أيها الملك لا طاقة لنا بهؤلاء انهم يحرصون على الموت كحرصنا على الحياة، ويحبون الآخرة كحبنا للدنيا..

لم يظفر عمار بما كان يتوق إليه في الإمامة. فقد قال له الرسول الكريم ﷺ "إن آخر شراب تشربه لبن".^{٩٣} وعمار كان يتوق إلى هذا اللبن لا يدري

٩٠ ابن الأثير، آمد الغابة، ٢/٢٥٠، علي المتقي، كنز العمال، ١٣/٢١١.

٩١ ابن الأثير، آمد الغابة، ٤/١٣٤، الكاندهلوي، حياة الصحابة، ٢/٤٥.

٩٢ ابن سعد، الطبقات، ٣/٢٥٦، علي المتقي، كنز العمال، ١٣/٥٣٦-٥٣٧.

أهو في مؤنة أم في اليرموك أم في اليمامة فيخوض حرباً إثر حرب. ولكن لم يحظ بالموت في كل هذه الحروب حتى بلغ صفين وأخذ موضعه في صف سيدنا علي عليه السلام وقد تجاوز التسعين من العمر آنذ واشتعل رأسه شيباً وكأنه من نور لا يرى فيه شعر اسود. حارب حتى المساء وعندها قال: "أليس شيء للشرب" فقدموا له قدحاً من لبن، وما أن رأى اللبن حتى قال هذا آخر رزقك يا عمار، لأنه قد سمعه هكذا من رسول الله ﷺ وبعد قليل شاهد الناس أفول شمس أخرى مع أفول الشمس، هذه الشمس ستشرق على سفوح الجنة. عمار لا يعرف الموت. إذ كان على يقين أن الأجل لا يتأخر ثانية ولا يتقدم^{٩٣} والقرآن الكريم يبين هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

اجل إن الله ﷻ قد عين أجل كل مخلوق مذ خلقه. فكل يموت عندما يحين أجله. سيدنا عمر عليه السلام توفي بطعنة وهو يصلي بالناس مع أنه قد خاض حروباً كثيرة^{٩٤}. وخالد بن الوليد قد قضى عمره في القتال وليس في جسده موضع درهم لم يصب بطعنة سيف أو رمح ولكنه عندما حان الأجل سلم روحه على الفراش.^{٩٥}

إنني أسعى لعرض الأمر الآتي:

٩٣ ابن الأثير، أسد الغابة، ١٣٤/٤-١٣٥ ابن كثير، البداية، ٢٦٨/٧

٩٤ ابن سعد، الطبقات ٣/٣٦٥

٩٥ انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٨٣/١

إن الأجل الذي قدره الرب للجليل لا يُستقدم دقيقة ولا يُستأخر. إننا نموت في الوقت الذي عينه الرب للجليل. فلا يمكن أن يحدث شيء دون إذنه وأمره. فلا نجاة من الموت إذا أقبل ولا اللقاء به قبل أوانه. فالذين تعقبوا الموت لم يظفروا به كما لم ينجوا منه بالفرار منه، ولما كان الموت لا يحل بأحد إلا في وقته المعين فالأفضل أن يموت المرء عزيزاً. فموت المسلم عزيزاً يخدم الإسلام ويفيده بمثل فائدة حياته في الأقل. لأن موته عزيزاً يرفرف على رؤوس الذين يأتون من بعده راية ذات عبرة. بل يكون عبرة ودرساً لكل ناظر إليه. نحن لم ننس سيدنا حمزة عليه السلام ولن ننساه أبداً. وكيف ننساه وقد سطر الملائكة الكرام بدمه في السماء: "أسد الله"، بعد ما قُطع أوصالاً وهو يحارب بين يدي رسول الله. حتى اعتقد أناس وجرب آخرون أن روحانية سيدنا حمزة - إذا ما استُمد منها - تتمثل لهم وتمدهم في أعمالهم. فنذرو الأبصار المفتحة يمكنهم أن يشاهدوه كل حين. فهو يحضر في أي مكان يذكر اسمه جزاء حسننا لمن ضحى بنفسه في طريق رسول الله ﷺ فهذه المرتبة والشرف السامي يمنح - منذ ذلك الوقت - لكل من ضحى بنفسه ومات عزيزاً كريماً في سبيل دعوة الإسلام العظيمة التي آمن بها.

من عشاق الجهاد

الفصل السادس

١. سيدنا محمد (ﷺ)

ان رسولنا الحبيب ﷺ هو أعظم من بعث رسولاً حظي بالألطف الربانية من البداية إلى النهاية. فهو صاحب لواء الحمد. وهو المخلوق المتميز بالمغفرة لما تقدم من ذنبه وما تأخر. بمعنى أن الله سبحانه كما لم يقدر له الذنب قبل رسالته لم يتح له الفرصة في أثناء رسالته كذلك لاقتراف الذنوب. فهو سيد الأنبياء والمرسلين وهو حبيب رب العالمين بل أحب مخلوق عنده فقد أعطي له كل شيء حتى لم تبق مرتبة دنيوية أو أخروية إلا أعطي له.. ومع هذا كان ﷺ له طلب و رغبة. وهي ما نراها في رواية البخاري ومسلم:

(والذي نفس محمد بيده لو كدّدت أنى أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل).^{٩٦}

هذا هو ما كان يتمناه ويطلبه الرسول ﷺ. ثرى ما حاجة فخر العالمين إلى الشهادة؟ وما الضرورة إلى الرغبة في الشهادة والتوضؤ بالدم وهو الذي توج به (لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك)^{٩٧}

اجل، كان يرغب ويسأل ويطلب لأن الشهادة تحمل العقد كلها وتكسب الإنسان في المحكمة الكبرى مراتب رفيعة متميزة. ماهية هذه المراتب نسمعها ونذكرها منه أيضاً:

٩٦ مسلم، الإمامة ١٠٣-١٠٦ البخاري، الإيمان ٢٦، النسائي، الجهاد ١٨-٣٠.
٩٧ تكلم علماء محققون حول هذا الحديث، فمنهم من أقره ومنهم من ضعفه ومنهم من أقره، ولعل قول علي القاري في شرح الشفا (٦/١) بعد خلاصة جيدة، حيث يقول: "إنه صحيح معنى ولو ضعف منى".

(عن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال إذا وقف العباد للحساب جاء قوم واضعي سيوفهم على رقابهم دما فازدحموا على باب الجنة فقبل من هؤلاء قبل الشهداء كانوا أحياء مرزقين)^{٩٨} وعندما يقول الرسول ﷺ "لَوَدِدْتُ أَنِّي أَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَحْيَا.." يلفت الأنظار الى هذه النقطة. فإن بين الأنبياء الكثيرين ممن جاهدوا في سبيل الله ولبسوا لباس الحرب فأكرموا بالشهادة فضلا عن النبوة. وإذا ما نظرنا إلى الرسول ﷺ بهذا المنظار فكلنا نعلم كيف أن امرأة يهودية في خيبر دعت الرسول ﷺ فتسمم إثر وضعها السم في الطعام^{٩٩}. ولدى بعض مؤرخي التاريخ الإسلامي أنه توفي من أثر ذلك السم. وهذا يعني - من ناحية - الشهادة. أي أن الرسول الحبيب قد توفي شهيداً. إلا أنه كان يريد أن يستشهد خلف السرايا ولكن الله سبحانه قد وعد بعصمته من الناس لئلا تتفرق الأمة الحمدية . أي انه تعالى قد قبل سؤاله ﷺ للشهادة أيضاً بشكل آخر.

٩٨ الميمني، جمع الروايد ١٠/٤١١ المنلري، الترغيب والترهيب، ٢/٣١٨.
 ٩٩ أبو داود، الدييات ٦.

٢. سيدنا عمر ؓ

كل ذي عقل يتمنى الشهادة نتيجة النضال والمجاهدة. فسيدنا عمر ؓ من هؤلاء. فقد ارتقى منبر رسول الله في المسجد النبوي بعد أبي بكر الصديق وخطب في الناس تحت مشاهدة روحانية الرسول ﷺ طوال عشرة سنوات. أقول تحت مشاهدة روحانية الرسول ﷺ لأن الرسول ﷺ لم يمت في نظر عمر. بل بدل غرفة بغرفة. أي انسحب من غرفة عائشة رضي الله عنها^{١٠٠} الى غرفة السعادة والنور تحت الأرض ويرى من خلفه من عالم البرزخ وعالم المثال.

وفي خطبة ذكر سيدنا عمر جنة عدن، واصفا سعتها وأبوابها وأول من يدخلها الأنبياء، ثم أعقب كلامه مباشرة بنظرة لطيفة إلى قبر الرسول ﷺ مع انحناء باحترام وتوقير قائلاً: "هنيئاً لك يا صاحب القبر" ثم استمر في ذكر الداخلين الى جنة عدن وهم "الصديقون" وكذا بالتفاتة لطيفة وانحناء باحترام وتوقير توجه إلى قبر أبي بكر الصديق قائلاً: "هنيئاً لك يا صاحب هذا القبر". ثم قال: يدخل جنة عدن من بعدهم الشهداء - ولعله تذكر ما بشره الرسول ﷺ بالشهادة عندما كانوا معه على أحد بقوله: (أثبت أحدكم عليك إلا نبي^{١٠١} وصديق وشهيدان)^{١٠٢} ولعله تذكر ذلك اليوم المبشر به فسكت هنيهة.. والجميع يرقبون ما ستتحرك به شفاه عمر من كلام. فقال لنفسه متذمراً: "الين

١٠٠ المسند، ٦/١٨٩ ابن سعد، الطبقات ٢/٢٢٩
١٠١ البخاري، فضائل أصحاب النبي ٦٦، أبو داود، السنة ٨.

الشهادة منك يا عمر؟" أي هل ستظفر بها؟ أو ما شابه من هذا الكلام. ثم توقف مرة أخرى وبأشرف كلامه: "إن الله الذي هدانا لهذا إلى الإسلام ووهبنا الهجرة وجعلك من أصحاب النبي ورزقك العيش في المدينة يجعل الشهادة من نصيبك أيضاً" ١٠٢ كان هذا حلم سيدنا عمر أن يُرزق الشهادة. وهو الذي قال الرسول الكريم بحقه (لو كان بعدي نبي لكان عمر) ١٠٣ وهو الذي ارتشف بالدرجة التالية من رحيق العلم اللدني الذي ارتشف منه الرسول ﷺ بالدرجة الأولى. وهو نموذج رفيع لا يضاهي للأمة. ومع كل هذا كان يرغب في أن يرصع بالشهادة تاج المجاهدة والجهاد الذي وضعه على رأسه.

ولا نعلم المدة الزمنية بين خطبته هذه وبين الطعنة التي نالها وهو يؤم المسلمين وطرحه على الأرض في الصلاة مضرجاً بدمه. لا يذكر لنا التاريخ عن هذا شيئاً جازماً. ولربما كان عمر في غضبٍ إرادته تلك الخطبة يعيش أيامه الأخيرة وكان يتمنى الموت ضمناً ويرغب فيه. فلقد بلغ به فراق الرسول الكريم والصديق حدة لا يطاق، فكان يدعو مراراً وبالحاح: اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك والموت في مدينة رسولك" ١٠٤ يدعو بهذا الدعاء ويتضرع إلى ربه ويبكي والمسلمون وراءه يبكون. وقد استجاب الله سبحانه دعاءه في إحدى صلواته فطُعن فأكرم عمر بالشهادة. ١٠٥

١٠٢ النظر الهيثمي، مجمع الزوائد ٩/٥٤ علي المتقي، كنز العمال ١٤/٦٤٥.

١٠٣ الترمذي المناقب ١٨ الهيثمي، مجمع الزوائد ٩/٦٨.

١٠٤ البخاري، المدينة ٢٩٩ ابن سعد، الطبقات ٣/٣٣١ أبو نعيم، حلية الأولياء ١/٥٣.

١٠٥ ابن الأثير، أسد الغابة، ٤/١٧٨ ابن سعد، الطبقات، ٣/٣٥٤.

وفي الحقيقة أننا لو أدركنا مدى أهمية دمعتين وقطرتين تسكبان في سبيل الله شوقاً إلى العالم الآخر عند ملكٍ مقتدرٍ لرغبنا في اقتناص تلك الحالة بألف شوق وشوق واصطفقنا لها كالحمام. ومعلوم أن هذا أيضاً مرتبط بدرجة الإيمان والإذعان.

يقول الرسول ﷺ فيما يخص هذا الموضوع :

(عينان لا تمسهما النارُ عينٌ بَكَتْ من خشية الله وعينٌ باتت تحرس في

سبيل الله).^{١٠٦}

اجل ان الله ﷻ يحب هاتين القطرتين إلى هذا الحد. فالذي يربط محبته بما يحبه الله ويرضاه ويعدّ نفسه لهذا السبيل لا يرغب في شيء من ملذات هذه الحياة الدنيوية ويعزف عن أدواقها الظاهرية. فلا يتذلل أمام مغريات الدنيا، بل يتأهب للعقبي بمشاعره ولطائفه كلها. ومن المعلوم إن هذه الأمور منوطة ببلوغ الإنسان إلى العرفان. وذلك أمر ليس بالسهل واليسير بل هو من أصعب الأمور وأشقها. فالعرفان كما نفهمه هو اشتعال شعلة الإيمان في داخل الإنسان حتى يرى بنور الإيمان العقبي كما يرى الدنيا. فيشاهد ويطالع ما في العقبي كما يشاهد ويطالع ما في بالدنيا. وعندها يتولد في داخل الإنسان شوق عارم إلى الآخرة لا يفضل كل من يملك عقلاً أي شيء كان على الجاهدة في سبيل الله ولا على الشهادة في ذلك السبيل. فكيف يعمل إلى هذه الدنيا الفانية الفاسدة من شاهد الجميل السرمدي و الجمال الأبدي؟.

١٠٦ الترمذي، فضائل الجهاد، ١١٢ علي المنقي، كنز العمال، ١٤١/٣.

٣. عمرو بن جموح - سعد بن خيثمة

الشهادة ضمان الظفر بالخلود. وكان عمرو بن جموح و سعد بن خيثمة من الذين ظفروا في عصر النور بهذا الضمان. كانا طريحي الفراش لا طاقة لهما على السير إلا بالاعتماد على العصا. ولكن ما إن سمعا نداء الجهاد إلا وانتفضا من موضعهما انتفاضة الأسد الجريح وتأهبا للجهاد. خاطب كل منهما أولادهما وأحفادهما قائلاً: "لو كان الأمر شيئاً غير الجهاد لفضلتكم على نفسي ولكن الأمر أمر الشهادة ولقاء الله جل وعلا والفوز بالجنة الخالدة. في هذا لا يفضل أحد غيره على نفسه" وذلك عندما قالوا لكل منهما: "أنت مريض طريح الفراش فقد بلغت من العمر عتياً، دعنا نخرج عنك للجهاد". فهذا الحوار جرى في بيتين مختلفين وبين متحاورين مختلفين، ولكن يكاد أن يكون المعنى واحداً. مع انه لا علم لأحدهما بالآخر. واحتكما معاً إلى الرسول ﷺ، اشتكى الشيخان من الشباب قائلين "ان أولادي وأحفادي لا يدعاني ان ارزق بالشهادة وأن أضحي في سبيلك روعي بكل سرور". ومهما حاول الرسول ﷺ تهدئتهما إلا أنهما كانا قد سددا نظريهما إلى الجنة فاضطر الرسول ﷺ في النهاية إلى القول نعم، وهكذا يشترك الشيخان في الجهاد. وبعد ذلك يقول الرسول ﷺ محذراً بصره إلى العالم العلوي: "أرى عمرو بن جموح يركض في الجنة وقد سلمت رجله". ووجدا ظهرا بظهر طريحين معا على

الأرض.^{١٠٧} أجل لقد استشهد سعد بن خيثمة وعمرو بن جموح في سبيل الله. والشاهد على هذا رب العزة وسيد المرسلين والملائكة الكرام. فهم شهود جميعاً على انهما قد ضمنا الجنة.

وغيرهما يمكن أن يعيشوا بالرغبة نفسها وهم مازالوا في الدنيا، يعيشون و الموت والاستشهاد أسمى غايتهم. ولكن كما ذكرنا من قبل ان هذا الأمر مرتبط بالعرفان واتباع الواصلين. فالبكاء هنا ينقلب هناك إلى ضحك وسرور، والقلق والمعاناة إلى الانغماس في الأذواق واللذائذ، والضيق والحرمان إلى مفارقة كل ضيق وحرمان. فعلى المرء ان يدرك هذا جيداً ويلقن نفسه هذه الحقائق دائماً. ولهذا فالتنقيب عن وقائع ماضينا سيكون نافعا جداً. وقد أتت إلينا دعوة الإسلام العظيمة منذ الرعيل الأول إلى الآن بهذا الشعور وعلى هذه الشاكلة. نعم إن التضحية بالنفس كانت عندهم رغبةً وعشقاً وتوقاً وهياماً مع انهم كانوا بشرأ مثلنا وكانوا يحبون الحياة. ولكن الذي دفعهم إلى هذا السبيل حقيقة أخرى. ولا يمكن إضاح هذه الحقيقة إلا انهم بلغوا العرفان. والقران الكريم يفرز فينا هذا العرفان ويعلن انه لا يلحق المجاهدين في مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم ومن اقتدى بهم في جهادهم وانهم ليسوا أمواتاً قطعاً بل أحياء عند ربهم بحياة لا ندركها نحن ولا يدركها إلا من بلغها.

١٠٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣١/٩ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢٠٨/٤، المسند ٢٩٩/٥.

٤. جعفر بن أبي طالب ﷺ

الشهادة دليل عزة المؤمن. والشهيد يرى من العزة والإكرام في الآخرة ما لضييف عزيز مكرم. وما رآه جعفر بن أبي طالب من الإكرام هو المثال الأنموذج.

لقد حارب جعفر بن أبي طالب ببطولة فائقة في مؤتة. حتى يقول الذين كانوا يراقبونه انه لم يلتفت إلى الوراء ولا مرة واحدة. ولما أصبحت فرسه تعيق مبارزته وتعرقل اندفاعه، تركها فوراً ونزل من ظهرها وقطع قوادمها بالسيف وانطلق راجلاً يخوض المعركة ويقابل الموت بصدر رحب وجنان جريء... حتى فقد ذراعيه واستشهد. ١٠٨ وقال الرسول الكريم ﷺ في مجلس يضم ابنه عبد الله ليسري عنه: "رأيت جعفرأ يطير مع الملائكة في الجنة" ١٠٩ اجل لقد حظي جعفر بنعمة الطيران مع الملائكة. منسلخاً من أوهاق البشرية فأصبح كالملك.

١٠٨ أبو داود، الجهاد، ٤٥٩ ابن الأثير، أسد الغابة، ١/٣٤٣

١٠٩ الترمذي، المناقب، ٢٩؛ الواقدي، المغازي، ٢/٧٦٧

٥. أبو عقيل ؓ

أبو عقيل أسطورة بحمد ذاته. شهد بدرًا، وبعدها شارك في جميع الغزوات مع رسول الله ﷺ. ولكنه لم يظفر بما كان يتوق إليه ويبحث عنه. وما نال ما يبغيه إلا في اليمامة، في الحرب الضروس مع مسيلمة الكذاب. فكانت اليمامة آخر يومه في الدنيا... وفي الحقيقة ان هذا اليوم الأخير جدير بأن يطلق عليه يوم الخلود. فلقد دبح أبو عقيل بدمه في ذلك اليوم قصيدة عصماء لا يقدر على مثلها أحد من الشعراء. لنستمع الآن إلى الحادثة من ابن عمر:

لما كان يوم اليمامة واصطف الناس للقتال كان أول الناس جرحاً أبو عقيل الأنيفي رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب في غير مقتل فأخرج السهم ووهن له شقه الأيسر لما كان فيه وهذا أول النهار وجر إلى الرحل فلما حمى القتال وانهمز المسلمون وجازوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدي يصيح بالأنصار الله الله والكرة على عدوكم وأعنت معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار أخلصونا أخلصونا فأخلصوا رجلاً رجلاً يميزون قال عبد الله بن عمر فنهض أبو عقيل قومه فقلت ما تريد يا أبا عقيل ما فيك قتال قال قد نوه المنادي باسمي قال بن عمر فقلت إنما يقول يا للأنصار لا يعني الجرحى قال أبو عقيل أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوا قال بن عمر فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى مجرداً ثم جعل ينادي يا للأنصار كرة كيوم حنين فاجتمعوا رحمهم الله جميعاً

يقدمون المسلمين دربة دون عدوهم حتى أقحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم قال بن عمر فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده الجروحة من المنكب فوقعت الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحا كلها قد خلصت إلى مقتل وقتل عدو الله مسيلمة قال بن عمر فوقعت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق فقلت أبا عقيل فقال لبيك بلسان ملثاث: لمن الدبرة قال قلت أبشر ورفعت صوتي قد قتل عدو الله فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله قال بن عمر فأخبرت عمر بعد أن قدمت خبره كله فقال ما زال يسأل الشهادة ويطلبها^{١١٠}.

١١٠ الكاندهلوي، حياة الصحابة، ١/٤٨٠، ابن سعد، الطبقات، ٣/٤٧٤-٤٧٥

٦. عبد الله بن عمرو ؓ

هو والد جابر، حضر جابر إلى رسول الله ﷺ وقال: "توفي والدي وخلف أيتاما كثيرين عقبه، علي أن أتكفلهم ولا املك ما يعيشهم". فحضر رسول الله ﷺ بيته ليسري عنه. وكانت ابنة جابر أو أخته في غرفة مجاورة تثن أنينا حزينا بما يُسمع الرسول ﷺ:

"جابر بن عبد الله يقول: لما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد، قال رسول الله ﷺ: يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك؟ قلت: بلى. قال: ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحا. فقال: يا عبدي تمنّ عليّ أعطك. قال: يا رب تخيني فأقتل فيك ثانية. قال: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآية كلها." ١١١

١١١ ابن ماجة، الجهاد، ٤١٦ الترمذي، التفسير ٤١٨/٣ البيهقي، دلائل النبوة، ٤٢٩٨/٣ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣/٣٤

٧. حرام بن ملحان ﷺ

لا أعلم هل هناك من يجهل بطولات بئر معونة؟ فلقد أرسل الرسول ﷺ من القراء الى قبيلة عمرو بن طفيل للدعوة والإرشاد، وكان بينهم حرام بن ملحان وهو خال سيدنا أنس وشقيق أم سليم. كان واحداً ممن عشق رسول الله ﷺ إلى حد الوله. وحينما اقتربوا إلى القبيلة خاطب من معه: "لأذهب أنا وتخفوا أنتم هاهنا فإن أنصتوا لما أقول تأتون من بعدي وإن أصابوني بشي تنجون" ورضي الآخرون بهذا الرأي.

وهكذا بلغ قبيلة عمرو بن طفيل، فتظاهروا كأنهم ينصتون إليه. وما أن أوضح لهم الحق وبسط الحقائق إلا وقطعوه بالرمح إرباً إرباً وطرحوه أرضاً غارقاً في بحر من الدماء. بيد أنه حظي بنور الآية الكريمة التي سيحظى به كل فرد في الآخرة وهي: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢) فكان بصره يرنو إلى جنات النعيم، اذ قال "فزتُ ورب الكعبة". إلا ان الكفار لم يكتفوا بقتله فحسب بل قتلوا أيضاً كل من كان معه من الصحابة الكرام. كان الرسول ﷺ وقتئذ في المسجد مع أصحابه فأجهش بالبكاء.

"عن أنس قال جاء أناس إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القُرَاء، فيهم خالي حرام، يقرءون القرآن ويتدارسونه بالليل وكانوا بالنهار يجهثون بالماء

فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء فبعثهم النبي ﷺ إليهم ففترقوا لهم فقتلوه قبل أن يبلغوا المكان فقالوا اللهم أبلغ عنا نبينا أننا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا. قال: فأتى رجل حراماً خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال: فزتُ وربُّ الكعبة. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: إن إخوانكم الذين قتلوا قالوا لربهم بلغ عنا نبينا أننا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا^{١١٣} وبأشر الرسول ﷺ بعد هذه الحادثة بقراءة دعاء القنوت في الصلاة كل يوم ودعا على أولئك القتلة^{١١٤} وقد سمح الله جل وعلا لهذا الدعاء فترة من الزمن حتى نزلت الآية الكريمة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: ١٢٨) أي أن هذا الأمر يخص الله سبحانه.

فهو الذي يتخذ منكم شهداء ويجعلهم أعزاء مكرمين، ويذل الكافر بعذاب خالد في نار جهنم. فالله يمهّل ولا يهمل. إذ يعطي الكافر فرصة بالإمهال ولكن إذا ما أخذه لا يفلته.^{١١٥} وكم من جبار قصم الله ظهره وكم من ظالم أخذه أخذ عزيز مقتدر وكم من فرعون دمر الله قصوره على رأسه وكم منهم من أغرقهم وكم منهم من أنزل عليهم حجارة من السماء وكم منهم من تركهم تحت النيران - كما في بومبي - وما نجى جسد بعضهم إلا ليكونوا عبرة لمن خلفهم. فالله يمهّل ولا يهمل. والله حلِيم ولكن عذابه أليم.

١١٣ أحمد بن حنبل، المسند، ٢٧٠/٣ ابن سعد، الطبقات، ٣/٥١٤ سيرة الحلبية، ٣/١٦٩.

١١٤ مسلم، الإمارة، ١٤٧ البخاري، المغازي، ١٢٨ ابن كثير، البداية، ٧١/٤-٧٢.

١١٥ انظر سورة المزمل: ١١-١٣.

فالذين أراقوا دماء المسلمين في بحر معونة صاروا حطب جهنم كلهم إلا
من دخل في الإسلام. أما الذين استشهدوا هناك فاصبحوا في جنات النعيم.
فلئن لم يكن هذا عزا وكرامة فما هو إذن؟

٨. سيدنا حمزة بن عبد المطلب ﷺ

أيمن ألا يُذكر سيد الشهداء وأسد الله حمزة إذا ما ذكر الشهيد؟
عندما خاض حمزة معركة أحد الحاسمة استشهد شهادة تليق به. لم يحظ
شهيد ولا مجاهد بالبطولة والشجاعة بمثل ما حظي به حمزة. فقد قتل في ذلك
اليوم ثلاثاً وثلاثين كافراً ثم استشهد حسب ما يورده المؤرخون. بمعنى أنه
قتل ما يقارب نصف قتلى المشركين قبل أن يقطع جسده أوصالاً. كانت
صفية أختها تبكي على نعشه المبارك وفي الوقت نفسه ربما كانت تسعى
لجمع أوصال جسده. كانت شهادة حمزة تثير أشجان رسول الله ﷺ من جهة
ومن جهة أخرى يشيره بكاء عمته صفية أم الزبير. لم يبق أحد من المسلمين لم
يجرح في ذلك اليوم، زد على تسع وستين شهيداً. وعندما رجعوا إلى المدينة
كان كل يبكي على أقاربه. بكاء على الشهداء وبكاء على الجرحى وبكاء
على من مات في بيته من اثر الجرح. ولكن غُفل عن واحد منهم في هذا
الهياج والعويل المتصاعد فلم يُذرف الدمع عليه. نعم إنه سيد الشهداء. فهذا
المنظر ألم رسول الله ﷺ كثيراً فقال بقلب منكسر حزين "ولكن حمزة لا بواكي
له". وما إن سمع سعد بن معاذ هذا حتى جمع نساء الأنصار إلى باب بيت
حمزة قال لهن: "ابكوا لحمزة ثم لموتاكم". ثم أصبحت هذه عادة جارية مدة
ثم انقطعت. ولو أن المسلمين بكوا لحمزة قبل بكائهم لموتاهم إلى يوم القيامة،
لما أوفوا حق أسد الله حمزة... ١١٥

١١٥ ابن ماجة، الجنائز، ٥٣ المسند، ٢/٤٤٠ ابن سعد، الطبقات، ٣/١٧-١٨ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/٥٣

٩. عبد الله بن جحش رضي الله عنه

وعبد الله بن جحش أيضاً من عشاق الشهادة. فقد اقتحم صفوف العدو يوم أحد لما رأى علائم الهزيمة في صفوف المسلمين وبدأ التشتت فيها. عبد الله بن جحش وسعد بن أبي وقاص أبناء أخوال. ويتقابلان عندما اشتد الكرب وحمي الوطيس. يقول سعد بن أبي وقاص :

"قال عبد الله بن جحش يوم أحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فخلينا في ناحية فدعوت: "اللهم إذا لقيت العدو غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده فأقتله فيك وأخذ سلبه." فأمن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: "اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يقتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلت: يا عبد الله! فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فيقول: صدقت." قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنيه معلقان في خيط." ١١٦

١١٦ انظر ابن الأثير، أسد الغابة، ٣/١٩٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/٣٠١

النتيجة

الموت الشريف.. يفضّله المؤمن الحق على العيش الذليل... الموت العزيز أفضل ألف مرة من العيش في عقر الدار في قلق واضطراب خوفا من تسلط الظلمة علينا. هو هكذا إذا استغرق في بحر العرفان الرباني، ذلك المسلم العزيز الكريم. ولا يدرك هذا المعنى من يعيش حياة المقابر ميتا في الحياة.

وفي الحقيقة انه من الصعوبة بمكان ان تتطهّر ذنوبنا بشكل آخر. ان الإنسان يعيش مرة ليكسب السعادة في الآخرة. والحال ان حياتنا تضيي غارقة بالذنوب. فكم مرة يقترف النظر الحرام شاب يحول في الأسواق ويجوب الشوارع، وكم مرة يموت كل يوم.. كم مرة ينغمس في القاذورات، كم مرة يفرق في الأوحال، كم مرة يُنزل الحرام الى معدته، بل كم مرة يركع ويسجد أمام الحرام، كم مرة يعصي ربه الجليل، كم مرة يهمل توقيير الرسول الحبيب ﷺ، بل كم مرة يزل إلى الكفر بإنكاره القرآن الكريم... فلا ضمان لتطهير هذه الأجساد الملية بالآثام إلا طريق الشهادة... البقاء في هذا الشعور والفكر، واغتنام الفرصة متى سنحت والإمساك بها، والسعي للفوز بذلك الموقع المعلى مضطربا اضطراب أبى عقيل... نعم ان هذا هو أسمى غاية لكل من حمل أمانة دعوة الإسلام العظيمة وينبغي ان يكون هذا. فالشهادة هي غايتنا ومطلوبنا وعشقنا...

ان افضل ما يعمله من أمضى حياته بالصالحات من الأعمال في منظومة من الشعر الرقيق أن يختمها بقافية الشهادة. وعندها تكسب الحياة قيمة أعظم وأعلى تفتتح في رياض الجنة الى ما شاء الله ان تفتتح عن ذخائر مباركة، ألا يكافأ في الجنة على كل عمل من الصالحات. فالجنة وجهنم حوضان ومخزنان تجمعان أعمال الإنسان، فيجتمع الخير والطيب منها في الجنة والشر والخبيث في جهنم. ومن هذه الجهة فنحن بمثابة من ينسج الجنة وجهنم ويحيكهما خيطاً خيطاً.

إن ناج الأعمال الصالحة هو الشهادة بلا شك. والشهادة هي تسليم من نذر حياته في سبيل الله، وروحه إلى الله على بصيرة وعلم. لأن بصره قد تفتح في الدنيا فشاهد ما وراء الدنيا ولما يزل فيها. وقد اجتني الشهيد ثمرات الجنة لنذر حياته لله. ومن هذه الناحية فهو المحظوظ المختار من بين الناس.

إن من يريد أن يأخذ حظاً كاملاً من حياة مباركة طيبة عليه أن يقطر عليها قطرات من الدم في سبيل الله ويكون شهيداً، كي يظفر بمطلوبه بأفضل ما يمكن. فالحياة التي لا تختتم بالشهادة تترك فجوات مهما كانت معمورة بصالح الأعمال. أما الحياة التي أخذت نصيبها من الشهادة بشكل من الأشكال فليس فيها فراغ ولا فجوة فهي كالقصيدة التي اكتملت بقافيتها إلى آخر بيت. ففيها الانسجام والنظام والمحبة. الشهادة مفتاح ذو أسرار، تفتح أبواب الرحمة للسموات والأرضين على مصاريعها. حيث يمضي الشهيد دون

حساب في المواضع التي يحاسب فيها حتى الأنبياء متوجها إلى ما أعد له من العوالم. الشهيد له حصانة. فلباسه الملطخ بالدم يمنحه الامتياز في المرور.

لقد حرص كل مؤمن بالله على الشهادة ختاما لحياته، في جميع المعارك الحاسمة والكفاح المستميت والحركات النضالية الجادة التي مرت في جميع الأدوار. ذلك لأن الله سبحانه يرضى عن أمثال هؤلاء من عباده، كما ذكر في حديث الرسول الكريم ﷺ: (عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله فانهزم يعني أصحابه فعلم ما عليه فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه).^{١١٧}

فهرست

تقديم	٥
المدخل	١٥
الفصل الأول (حول مفهوم الجهاد)	
١- ما الجهاد ؟	٢٢
٢- الجهاد أمر إلهي	٢٦
٣- أنواع الجهاد:	٢٩
أ- الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر	٢٩
ب- الطرق المؤدية إلى الله	٣٠
ج- ما يخلصه صلى الله عليه وسلم	٣٣
د- والدين اتبعوه	٣٦
هـ- جلب العتاة الإلهية ودعوتها	٣٩
و- فهم السلف	٤٣
ز- ما يجب على إنساننا اليوم	٤٣
الفصل الثاني (وظائف الجهاد)	
١- الجهاد مهمة الأنبياء والرسل	٤٩
٢- الجهاد شهادة للحق	٥٢
٣- الجهاد منبع الحياة	٥٦
٤- الجهاد شعور سام	٥٨
٥- الجهاد مرتع واسع للركة والعطاء	٦٥
٦- الجهاد منبع حياة لا موت فيه	٧٠
الفصل الثالث (علائق الجهاد - المؤمن - الكون)	
١- الجهاد واجب كل مؤمن	٧٥
٢- نستعد للجهاد كل أن وحين	٨٠
٣- الجهاد يكتمل به المؤمن كل آن	٨٣
٤- الربانيون يمثلون الحاكمية	٩٠
أ . أنس بن النضر	٩٢
ب . البراء بن مالك	٩٤
ج- الجهاد وسيلة لحاكمية الأرض	٩٧
أ . الحاكمية عند سيدنا موسى (عليه السلام)	١٠١
ب . مفهوم الحاكمية على الأرض	١٠٣
الفصل الرابع (مكتسبات الجهاد)	
١- الجهاد ضمان الاستقرار الداخلي والخارجي	١٠٩
٢- الجهاد يحول دون اللذل	١١٦
أ . ثمن اقتحرا العقبة	١٢٠
ب . من أجل حياة عزيزة	١٢٣
الفصل الخامس (عرائق الجهاد)	
١- لا انسحاب بين الجهاد والدمعة	١٢٩
امثلة من الرسول الكريم وصحبه الأطهار	١٣٤
٢- علاقة الجهاد باستحقاق الحياة	١٣٩
الفصل السادس (من عشاق الجهاد)	
١- سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم	١٤٩
٢- سيدنا عمر (رضي الله عنه)	١٥١
٣- عمرو بن جوح - سعد بن حنيفة	١٥٤
٤- جعفر بن أبي طالب	١٥٦
٥- أبو عقيل	١٥٧
٦- عبدالله بن عمرو	١٥٩
٧- حرام بن ملحان	١٦٠
٨- سيدنا حمزة بن عبدالمطلب	١٦٣
٩- عبدالله بن جحش	١٦٤
١٠-	١٦٥